عبدالله الماي

عبّاد الماء

قصص قصيرة



عبّادُ الماء

قصص قصيرة

عبدالله الماي

عبّادُ الماء

قصص قصيرة



عيسى يوسف اللويش

عبّادُ الماء

عبدالله الماي

الطبعة الأولى : 2020 م

رقم الإيداع المحلي: 183/2020

رقم الإيداع الدولي: 9789959-921-383

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

1
(الاسير)

تفتقتْ ذهنيتُهم على طريقةٍ هي غايةٌ في المكرِ والكراهيةِ، يمكنهم بها الانتقامَ منه الى الحد الذي يشفي غليلهم، وذلك بتعذيبه وحرمانه الراحة، وباقلاقه وتسهيده الى أقصى حد يمكنهم فعله، دون أن يكلفهم ذلك شيئا يذكر من التعب والعناء، ولا يتطلب منهم جهداً كبيراً أو التزاماً بالبقاء الى جواره لمراقبته، وأخذُ الحيطةِ والحذرِ منه ومن ردود أفعاله المحتملة، والحرص على عدم هروبه أو تسهيل له مهمة ذلك من قبل أي كان، حيث ربطوه بأصفاد حديدية تنتهي بأقفال محكمة لا تُفتح الا بمفاتيحها فقط في رِجلِ بقرة شرود لا تهدأ ولا تستقر على وضع، الا لماماً في لحظاتٍ قصيرةٍ من هدأة جوفِ الليلِ حيث تنامُ لبعض الوقت ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها أو التكهن بحماقاتها كحيوان جفول، ثم تركه وشأنه معها فكلما خلد للراحة او داهمه النعاس، حتى تجفل هذه البقرة فجأة وتنط من

مكانها ﬞ شراسة، تحت تأتير أي طاريء او عندما تجوع تتحرك بشدة وعفوية كي تصل الى العشب الذي وضع بعيدا عنها تحسبا لهذا الغرض بتوسيع دائرة حراكها، فتتشله من يده او قدمه المربوطة ﬞ رجلها فيستيقظ مدعورا قبل أن يتحصل ولو على اليسير من حاجته للنوم، ويتعكر مزاجه، الهدف من كل ذلك الاستمرار ﬞ تأريقه وارهاقه. انه احد أسرى الحرب الذين تم احتجازهم ﬞ احدى المعارك، وبقي ثلاث سنوات مكبل المعصمين والكاحلين بنفس الأصفاد التي لم يتم فكها ولا تغييرها لعدة سنوات، ولم يُعرفُ عنه شيئ طيلة المدة التي بقاها مجهولاً ﬞ الأسر، قال أحد رفاقه الذي عاد سالما فيما بعد :— قبل بدء الاشتباك رأيناه حياً يرزق، ويتحركُ هنا وهناك نشطاً رابط الجأش ويتمتع بصحة جيدة، ولكن ما ان انقشع غبار المعركة حتى اختفى تماما، ولم يظهر له وجود أو يُعثرُ له على أثر، ولم ننتبه الى فقدانه الا بعد مرور وقت ليس بالقصير، لأن كل شخص منشغل بأمره الخاص به وملتهي بنفسه، محتميا بموقعه لا يريد مغادرته، وعندما هدأ روع الجميع أخذ كل جندي يتفقد رفاقه ويبحث عن معارفه المفقودين، اكتشف رفاقه اختفائه اذ لم يره أحدٌ مصاباً أو ميتاً، وقد يكون من ضمن الجنود الذين تم احتجازهم، وأخذهم كأسرى حرب، وبقي ﬞ عداد المفقودين، لا معلومات تؤكد أي شيء عنه فلا هو بالحي ولا هو بالميت. وهكذا منذ الاهتداء الى هذه الطريقة الماكرة، لم ينم نومةً مريحةً ولم يهنأ له بالٌ، فما أن يضع

رأسَه على ذراعه أو يتوسد أي شيء يجده بقربه وتطوله يداه وما ان يداهمه النعاس، حتى تركله البقرة بحافرها فينتفض فزعاً وهو يشْتِمُ من كان السبب في هذا، ولكن بمرور الايام لاحظ أنْ البقرة قد غيرتْ من تصرفاتها وبدّلتْ اسلوبَ تعاملها معه، اذ على ما يبدو أنها أدركتْ امتعاضَه من حركاتها المفاجئة المنفرة غير المتوقعة، وأحستْ بما تسببه له من تذمرٍ وتلحقه من ايداء بهذا الانسان المربوط اليها غصباً عنه وتزعجه ايما ازعاج، فينهض مدعورا فزعا، وقد تملكه التذمّر والقلق من هذا الاسلوب الذي لا يرى امكانية للخلاص منه في ظل الظروف الراهنه، ولا في الوقت القريب، لكن البقرة لوحدها توصلت لادراك ما يجب أن تقوم به، وتنبهت الى خطئها غير المتعمد، وأحست بالذنب تجاه رفيقها الجديد، وشاءتْ الإعتذار له عما بدر منها في السابق وقامت به سهواً من ازعاج، فاصبحتْ ذلول طيعة تتحرك ببطء وتراعي شعوره وراحته اذ تشرئب برأسها كي تصل الى العلف والبرسيم الذي وضع لها دون أن تضطر الى تحريك رجلها الموثوق بها الحبل، فتبقيها ثابتة وتحرك الثلاثة الأرجل الباقية، وتمد عنقها ما استطاعت حتى لا تكون سببا في ايلام أو التنكيل بهذا الكائن الذي اصبح رفيقها ومؤنسها، أو ربما جزء منها، وأمسى فيما بعد يتمتع بالراحة والهدؤ من جانبها ويهنأ كلما خلد الى النوم فينام ملء جفونه، اللهم الا اذا احست بخطر ما، فتتبهه اليه، وهذا تصرف ينم على تمتين ارتباطها به. وحده لمس هذا التبدل في مسلكها الغريب،

واندهش! كيف يصدر من حيوان أبكم لاعقل له، فأدرك أن هذا الحيوان الجفول الشرود قد تعلم شيئاً جديداً لم يتعلمه حتى الانسان ذو العقل في هذا الزمن القياسي، هل يمكننا القول أن بعض الحيوانات يكمن في دواخلها حنان وشفقة يزيد عما يمتلكه الانسان؟ لقد تبنته وارتبطت به بعاطفة أمومة، انها انسان لا يتكلم، هاله أن يعثر على حيوان يتمتع بقدرات أرقى من فهم وادراك الكثير من المخلوقات، انها بقرة مميزة احتفظ لها بهذا الصنيع في قلبه، ولم يبح به لأحد حتى لايغيّروا من طريقتهم معه أو يستبدلونها ببقرة أخرى أكثر جفولاً. وكلما اقتادوه الى مكان على المقربة للتحقيق معه أو استجوابه تقف متسمرة الرأس حائرة تتوجع لفقده، وتتوقف عن الأكل وهي تنظر الى وجهته التي توجّه اليها واختفى عندها، وكأنها أصيبت بالذهول، ترجو وتنتظر على قلق عودته، فقد اعتادت عليه وألفتْ مرآه ولا تطيق فراقه وكأنه فطيمها، اذ كان يرضع من ضرعها مباشرة، ومن كثرة مابقي الى جوارها ووجوده بقربها في كل الأوقات رئمته في نهاية المطاف، وتوالفت معه ولم تيأس من قدومه مجددا، تظل تنظرُ الى النقطة التي اختفى عندها لا تلتفتْ عله يعود من جديد الى أن يظهر عليها فتعود اليها الطمأنينة وتستأنف حراكها وأكلها، وهذا ما يحدث كثيرا، وكان ارتباطها به وثيقا عميقاً لا ينسيه طول الغياب، ولا تكرار الإبعاد، وكأنها تقول له عد اليّ أيها الغريب، فأنا غريبة مثلك وأحتاج الى مؤانستك! واصبح مقتنعاً تمام الاقتناع بأنه لا يستطيع اكل لحمها

لو قدر عليها ان تدبح وقدم له على المائدة. ناهيك عن العصافير التي كانت فيما مضى تأتي الى مربط البقرة بحثا عن الحبوب أو أي شيء تأكله، أخذتْ تتجرأ متعمدة على الإقتراب منه أكثر فأكثر دون وجل، وتبدو واثقة من عدم التعرض لها بسؤ رغم انها من ذلك النوع من الطيور القلقة وغير الإجتماعية، وبمرور الزمن أصبحت تقاسمه مايقدم اليه من طعام، رغم انه في خصاصة شديدة له، ولا تتردد في انتزاعه من بين أصابعه وكأنها شريكة له فيه ولها الحق في ذلك، وتتزاحم حوله وتزداد أعدادها وفرة، وهو يستحي أن يؤذيها، أو يبادر بطردها، على اعتبار أنهم ضيوفه وليس من اللائق التنكر لهم، رغم ما يلاقيه منها من مضايقات وإزعاجات صغيرة كأن تنقره أحيانا وهو غافل عنها في أحد أطرافه أوعنقه فيبتسم عن رضا وهو يهرب بأصابعه بعيداًعن مناقيرها، وأحيانا يضحك بصوت مسموع وكأنه يمازحها أو يعاتبها على خيانتها الجميلة هذه، وتذكر عندما كان طفلا صغيراً انه يتعامل مع العصافير وبقية الطيور بندية وكأنها مثلنا تماماً ويتمنى الوصول اليها والامساك بها فهي سريعة الهرب وبمجرد الاقتراب منها حتى تفر مبتعدة ويصبح من المستحيل اللحاق بها، مما كوّن لديه احساساً بالتعلق بها وحبها، وهاهي تأتيه طواعية بعد ان كانت تهرب منه، لكنها تطير دفعة واحدة عن بكرة أبيها ما ان يقترب من المكان شخصٌ آخرٌ غريب عنها أو يخيّل لها شيء غير مألوف وتحس منه بالخطر، ولا تطيق أن يقترب منها أحد، واستفاد

من هذه الميزة كانذار مبكر بقدوم أحد السجّانين أو دنو مخطرة، فيتهيأ ويستعد لها. قال محدثاً نفسه: – هذه هي المرة الأولى والوحيدة حتى الآن التي منحها لي القدر وتسنى لي فيها الاقتراب مرغماً من بعض الكائنات الأخرى التي تحيا معنا ونعمّر معا هذا الكوكب، والتي ماهي في حقيقتها الا أمم أمثالنا لها طبائعها المختلفة ولها لغاتها المتباينة. وهي كل ما تبقى على مقربة مني، فتمنيت على الله أن يهديني الى فهم لغة الحيوان ومنطق الطير، حتى أتمكن من التخاطب معها والتعرف عليها، وفهم مكنوناتها وقدراتها الغامضة، وأعرّفَها عن نفسي الكثير، فقد كانت تصدر أصواتا كثيرة متداخلة، وأنا دائما أرهفُ السمعَ اليها علّني أهتدي ولو لفهم القليل من خوار البقرة، أو هذه الشقشقة المتداخلة المبهمة التي تصدرها الزرازير كل صباحٍ دون انقطاع، وكلما أرهف الانسان سمعه أكثر ودقق اكثر تتكشف له أسرارُ هذه الشفرة ولو قليلا، فلو قلتُ لكم أنني اهتديتُ الى ادراك بعض المدلولات لأصواتِ العصافيرِ لما صدقني أحدٌ، حقيقة لم أتمكن بصورة مرضية من استيعاب هذه اللغات، الا أن أذني قد ألفت ذلك وأصبح عقلي يترجم ما أسمع كاحساس بمدلولاتها، ورد فعل أي منطوق. في البداية كنت أعتقد أن العصافير تصدر صوتاً واحداً أو نغمة واحدةً لا تعرف غيرها، ربما لامعنى لها وتكررها على الدوام كأصوات الآلات، لكن عندما اقتربتُ منها أكثر وقلّ حواري مع البشر، حتى كدت أنسى لغتي الأصلية، وأخذتّ

تـزورنـي كل يـوم عـدة مـرات وأصبحتُ شبه عشير لها، لاحظتُ الاختلافَ والتباينَ بين الأصوات التي تصدرها عندما تصحو وتكون نشطة فرحة بالنور عند الفجر وفي الأصباح، أو عندما تكون غاضبة أو في شجار مع بعضها على ما يبدو وهي تتناقر من اجل تقاسم الحبوب أو الفُتات، وهي تلتقط الحب، أو عندما تخلد للراحة في المساء، وأن هذه الأصوات ليست على وتيرة واحدة أو نغمة متكررة، بل تتغير حتى أنني وددت تعليم العصافير الضحك وتعلمني هي الغناء، ولغة الحيوانات في مجملها ليست بالأصوات فقط ولكن بالحركات أيضا. ملابسه العسكرية الخشنة قد توسخت وتراكمت عليها الـقـذورات وعندما جفتّ أصبحتّ يابسة وصلبة كـأوراق الأشجارالناشفة، وبمرور الأيام أخذتّ تتكسرعلى جسمه تلقائياً كلما أتى بأبسط حركة، الى أن بَلَتّ تماما وتناثرت خرقاً ونتفاً هنا وهناك وأصبح شبه عارٍ لا شيء يقي جسده من تقلبات الطقس ومن الأتربة والأوساخ. منذ بداية أسره أخذ آسروه يستغلونه في انجاز الكثير من المهام المتعبة والمهينة، والتي يترفعون متأففين عن تأديتها وتحتاج منهم الى جهد كبير، فيسخرّونه ليقضي لهم حوائجهم. ذات صباح وعلى نحو غير متوقع اذ توقفتّ حذوه سيارة جيب بها شخصان أحدهما على ما يبدو محض سائق ليس أكثر، والآخر ضابط مسؤول، وهو الذي أمره بالصعود الى صندوق السيارة خلف قمرة القيادة، لم يسألهما كالعادة عن الوجهة ولا عن سبب الانتقال به من هذا المكان

الـذي استأنسه وألـف الحياة فيه لكنه اكتفى بالصمت والطاعه المعهودين، وقفز الى مؤخرة السيارة بخفة ولا مبالاة، الى ان تحركت واستقلت الطريق المتجهه شمالا، حيت الجبهة التي أُسِرَعندها. القى نظرةَ وداعٍ على البقرة فلاحظ أنها تشيّعه بنظراتها هي الأخرى كعادتها وكأنها تقول له الى أين أيها الرفيق الغريب؟ أحس بذلك وصوت في داخله يجيبها الى أمي الأولى هناك.. هناك حيث تنتظرني على قلق وأنا على يقين من ذلك، بقيتّ البقرة متسمرة الرأس جاحظة العينين الى أن حالت مابينهما أجمة كثيفة واختفى كل منهما عن الآخر لقد جئتُ فجأة وها أنا أختفي فجأة. فقد تجددت المعارك في اليومين الماضيين، بعد هدنة هشة استمرت ثلاث سنوات تخللتها بعض المناوشات المتقطعة على فترات متباعدة. تشبثَ جيدا بعارضة حديدية مثبتة بصندوق السيارة التي أخذت تهتز بشدة وتنتفض عاليا كديك مدبوح، وأحيانا تحس أنها تتقافز كالأرنب البري وتتعرض لخضات تكاد أن تقذف به عالياً الى خارجها، مما انهكه بسرعة وجعله يتقيأ، صانعة سحباً كثيفة من الغبار الذي يرتد عليه ويترسب على وجهه وذراعيّه، مما سبب له حرقاناً وحكة مؤلمة في جلده وكأن الأمر مدبر ضده، والسائق بهذه الرعونة يريد تحطيم السيارة وليس الوصول الى وجهته المقصودة سالماً، بعد مشوار طويل صفت السيارة جانبا على مقربة من الطريق لأخذ قسطاً من الراحة على ما يبدو، أعطاه السائق عدة الشاى، وأمره بجمع الحطب اللازم وايقاد النار،

وتحضير الشاي الأسود الثقيل لهما والذي يبقى يغلي على النار طويلا حتى يصبح شديد التركيز على الطريقة المعروفة في الصحراء: (ثلاثة أدوار متتالية) وبعد ان تفرغ من تحضير الشاي أعلمه أحدهما بأنه لا مزيدً من الصبر عليه حياً، فسيقتله ويضع حدا لمعاناته ويخلصه من معيشة البؤس والعذاب التي يحياها منذ سنوات، يقول ذلك باستقواء وتعالٍ مذلٍ وبنبرة حاسمةٍ وكأنه يترحّم به ويقدم له مزيّة، يجب ان يشكره عليها. تساءل في نفسه مستنكرا هذا الأسلوب:

– أيظن أنني سئمت الحياة وأتمنى الموت بهذه البساطة والرخص والاستخفاف لمجرد وقوعي في الأسر، ويريد أن يتفضّل عليّ بالقتل، فدائما ما يقع الجنود في كل مكان من العالم في الأسر، لا غرو في ذلك، ويتم أحيانا مباشرة استبدالهم أو اطلاق سراحهم، ويعودون الى أهاليهم سالمين، ولكن بلا جريرة ولا سبب مقنع يدعو الى هذا الوعيد، الا لأنني مجرد أسيرٍ لاقيمة له، فيدّعي أن له الحق في التصرف به كيفما يشاء! لا شيء يوقف ما سيأتي ويحد من الخطورة، وأدركت أني أصبحت رجلا ميتا وتملكني رعب شديد وأضعَفَ من عزيمتي، اشتد بلبالي من هذه التهديدات الصادمة التي وأدتْ حلمي بالعودة الى أطفالي الصغار سالما، وضاقت فسحة الأمل التي كنت أعيشها. فعلتُ كما طُلِبَ مني، وانتظرتُ أراقبهما في صمتٍ، وقد بقيا على مسافة آمنة مني، في جلسة استرخاء، وكأني بهما يخشيا أن آتي بشيء يؤذيهما، أو لا يريدانني أن أستمع الى فحوى حديثهما، رغم

أني لا أعرف بالتحديد هل هما، يتحدثان بشأني أم بخصوص أمور أخرى تهم الحرب الدائرة رحاها في الجبهة، لكن شكوكهم وخوفهم أوحت اليّ بفعل شيء مضاد ما داما على هذه الحالة من الخوف مني!، بقيت أختلس النظر المحكم غير الواضح والسمع المرهف اليهما، وأتابع الحركات والسكنات بانتباه. جهز لهما الكوب الأول(الدور الأول) وقدم لهما ابريق الشاى (البراد) مع كوبين نظيفين، وأخذا يرشفان الشاى بروية وهو يتابعهما بحرص ويفكر متطلعاً علّه يلاحظ شيئا يهمه أو يستفيد منه في محنته هذه.. أعاد الغلاية الى النار لأعداد الدور الثاني، ولم يكن سهلا عليه التغاضي عن ذلك ولم يكن في نيته أيضا الاقدام على فعل مناويء، تنهضه الحيرة وتحطّه، اناء الشاى امامه على النار يغلي ويفور، وقلبه أيضا يغلي ويفور، ويؤرقه البحث عما يمكن فعله في هذه اللحظات القاسية، والمتسارعة التى تطبق عليه وتضيّق الخناق أكثر، وفي هذه الأثناء اضطر أحدهما للنهوض، مترنحا ومشى متعثرا مبتعدا عن رفيقه، اتضح انه يريد ان يبتعد لقضاء الحاجه. قرفص وأخذ يتغوط في الخلاء، وبينما هو على هذه الحالة اقتربت منه ذبابات كبيرة لحوحة زرقاء اللون، محدثة طنينا حادا، لايعرف ما اذا كانت فرحة بقدومه، أم تستنكر ذلك وهي تهاجمه الآن، شدّه صوتها فالتفت حوله باحثا عنها، وقد راعه وجودها في هذا الخلاء، الذي تنعدم فيه الحياة، مستغربا كيف استطاعت العيش والبقاء؟ وكيف وجدت أصلا في هذه الفيفاء

النائية؟ أخذ يفكر ويفترض ويتكهن عن ظروف وأسباب وجودها، استغرق يتلهى بها، مسترسلا في تفكيره، حتى نسي نفسه، خاصة وانه مخمور فقد لعبت برأسيهما الخمرة (المريسه) التي اعتادا على تناولها كلما توفرت لهما كمية منها، هدّ حيلهم الشراب وتراخى جسماهما وتدلت أطرافهما، وبالكاد الواحد منهما يقوى على المشي أو حتى الوقوف على استقامته باعتدال، مادامًا على هذه الحالة شجعه هذا على فعل شيء ما ينقذ به نفسه، اذا أزفت ساعة الحسم لا مجال للتراجع، ولا للخطأ أو قصرالحسابات، فليمض قدما في تنفيذ العملية الملائمة. ويجب عليه التوصل الى خطة فوريه لانقاذ الموقف، والآن ليس لديه من وسيلة أو أداة يمكن الاستعانه بها واستعمالها الا يديه المغلولين وغلاية الشاى هذه، أو موقد النار الذي أمامه، من هنا لمعت في ذهنه فكرة أن يسكب عليهما الشاى وهو يغلي ربما يحقق له شيئا مما يرتجيه، رغم أنه على يقين تام بأن ذلك لن يجدي نفعا، ولن يكون له الأثر الذي ينقذنه من القتل، ولكن كالقشه بالنسبة لغريق، هذا ان لم يأتي بنتائج عكسية ويعجّل بقتله. قال لنفسه: — جاء الآن دوري، بعد ان حاصرني الزمن وأخذ يضيق عليّ أكثر فأكثر، وعليّ التغلب على خوفي وأن أفعل شيئا ما تجاه وضعي، أن أعوّل على نفسي وألا أقف مكتوفَ اليدين والقدمين ومكتوف التفكير أيضاً أنتظر فقط — في هذه اللحظات الضاغطة — حدوث المعجزة المستبعدة. امسى الموت يخيم على المكان، فقد قاربت الحكاية

من نهاياتها، وأصبح لزاما عليّ أن آتي بأي رد فعل مجد، فالتعلق بالحياة أو حب البقاء كلما كان قويا، يؤهل صاحبه الذي لم يستسلم لأن يفكر بشكل مضاعف، ويحثه على المبادرة، ويخضع الحلول لارادته، وتفكيره كأن يزينها له ويسهلها عليه. مرغم اليوم على فعل شيئ ما، أن يواجه هذا الحرج الذي هو فيه، ويتحدى بما أوتي من سبل، ولا يهدر الزمن سدىً، عندما قال لي أحدهما: — يكفي صبرا عليك، ليس مثلما أقول له أنا الآن : — يكفي اضاعة للوقت، لأن الصبر ممكن له واضاعة الوقت لا تمهلني لنيل نجاتي من الموت، فالصبر غير اضاعة الوقت الفرق كبير. عليّ أن أدافع عن نفسي، وأتمسك بوجودي، وأتشبث بالحياة، فما دمتُ لم أمت أثناء الحرب، وأمدَ الله في عمري، فيجب أن أعود الى امي وأطفالي، أن أدخل الفرح والبهجة الى قلوبهم التي تنتظر عودتي في يأس وقنوط، أن أحقق لهم هذا التعلق بأمل رجوعي، وأضاف مخاطبا نفسه: — أعرف يا أمي أنك الوحيدة التي مانستني وتنتظرينني بشوق، وتثقين في عودتي، ولم تصدقي يوما أنني مت بل وترفضين هذه الفكرة من أساسها ولا تطيقين سماعها، أو تتجاهلينها، تجلسين في سقيفة البيت وأحيانا تنامين بها حتى الصباح لعلما في أخريات الليل يطرق الباب وتفتحينه وتكونين أمام احتمالين اما تتلقين الخبر المدمر بموتي، أو تكتحل عيناك برؤياي حيا معافى وتستقبلينني وتأخذينني الى حضنك دفعة واحدة، أما الباقون فأعلم أنهم سرعان ما يأسوا

من عودتي ونسوني من الأيام الأولى لغيابي. وبدأت ذاكرته تسعفه بما تقترحه عليه من محاولات عديدة ومتنوعة، منها ما يحتاج – عند الاقدام عليها – الى ذكاء ودهاء، ومنها ما يحتاج الى صبر وتريث، ولكن أصعبها عليه هو تحديدا ما يحتاج الى – ولو القليل من العنف والتوحش، وهو الانسان الذي يفتقد لروح القتال ويشكك علانية في قدراته على اقتراف جريمة قتل مثلا أو ما شابه، أي كانت وتحت أي ظروف، ولم يسبق له أيضا أن عاش تجربة حرب، ولا شهد معركة واحده، أو رأى الدماء تسيل من الجرحى، ولا حتى تدرب عليها في المناورات التدريبيه، أو التمرينات التعبويه، التي تجريها عادة الجيوش، هذا ما جعله صيدا سهلا للوقوع في قبضة الأسر، لكنه لم يستقر على رأي بعينه، من تلك الآراء التي ترد اليه تباعا، ودونما توقف، يتدارسها ويقلبها على كل الأوجه، لمعرفة مدى صلاحيتها، وحظوظ نجاحها، والزمن يلح عليه قبل أن يسبقوه الى تنفيذ وعيدهم أو يُكتَشفُ أمره، وتبطل محاولاته أو يتم احباطها، اتضح له أن الأمر يحتاج الى الكثير من التصميم والمقدرة على المحافظة على الهدؤ وضبط النفس، امساك زمام المبادأه. تجب مواجهة الموقف بشجاعة أكبر، في أحيان يعلق آماله في النجاة، على حدوث معجزة أو وقوع أعجوبة نجاة ليست في الحسبان، الا أن كل ذلك يبقى احتمال ضعيف، وليس الا تفاؤلاً ومجرد أمنيات تراود الانسان الذي يكون في مثل حاله هذا. وعلى ما يبدو أن الظروف وحدها هي من يقرر

المحاولة الأنسب. هناك مغامرات، تكون مخلوطة بالمتعة، ويستجم الانسان عندما يقدم عليها، بينما مغامرتي هذه عكس ذلك تماما، وان كان قد يعقبها نجاح يفوق المتعة اذا ما كللت بالتوفيق. سيغتنم أول سانحة للفرار من هذه القبضة الحديدية المحكمة، ولكن لم يعد أمامي من مفر سوى الهروب الى الأمام والمواجهة، فهو عاجز لأنه مكبل بالحديد، وهما عاجزان لأن الخمرة قد ذهبت بعقليهما، لكنهما من حين لأخر، يلوّحان له، ويهددانه بالقتل، وكانا هذه المرة جادين في ذلك، وعاقدين العزم على تنفيذ وعيدهم، الا أن تراخيهم، أو ربما هما يفكران في شيء آخر أجهله، جعلهما يؤجلان فعلتهما هذه الى وقت آخر. بات في نيته أن يتأخر أكثر في تحضير دورالشاى والأنتهاء منه كي يمنح نفسه فرصة أطول للتفكير والتوصل الى قرار حاسم يرضى عنه، ويكون مضمون النتائج عمليا الى حد بعيد، ما داما قد حددا له الموعد بانتهاء تحضير الشاى. كل الخيارات أجازها لنفسه، عندما يصبح ذلك ممكنا، ازداد ارقه في البحث عما يمكن فعله. استعصى عليه الأمر وبدأ يفكر في أشياء سيئة ولم يجد مفرًا من عمل المحظور الذي كان يخشاه طيلة عمره، اذ قرر أن يتخلص منهما والقضاء عليهما إن أمكنه ذلك، وليكن ما يكون، انه تحدياً كاملاً للموت بالموت! ترى لو ينظر الانسان الى الوراء، وكيف كان يحيا قبل هذه الحرب المشؤومة؟. سحبتُ براد الشاي وهو يغلي من النار واتجهت نحو آسريّ بعد أن بقي وحده بحذر وهدؤ شديدين، محترساً

كي لا أوقظه ان كان نائما وألا الفتَ انتباهه لو كان غافلا، وأنا أحمل غلاية الشاى بكلتا يديّ المكبلتين، وخطواتي كانت سريعة، حتى لا يفقد الشاى بعضا من درجة حرارته ويبرد، فيكون غير مؤثر الى أن توقفتُ الى جانبه تماما، نظرتُ نحوه متظاهراً اللامبالاة، حتى لايتطرق اليه الشك ان كان على وعيه، فوجدته مستغرقا في غيبوبته أو ربما هو قد نعسَ لا يعي بما يدور حوله، لقد أكثر من الشراب. قلت في نفسي : — لو سكبت الشاى الساخنَ على وجهه قد لا يتضرر بالقدر الذي يعوقه عن تنفيذ تهديده ويفيق ثم يثب الى بندقيته، ويرديني قتيلاً على الفور، بعد أن تحصل على مبرر مجاني مني لذلك، وقبل أن أستطيع فعل أي شيء له، فتخليتُ عن فكرة احراقِ وجهه بالشاى الذي يغلي، ووضعت غلاية الشاى جانباً على الأرض بهدؤ فليس هناك مجالٌ للخطأ أو قصر الحسابات، والأمر يتطلب أعصابا فولاذيه واختيار الإجراء الأضمن. لم أتمكن من التحكم في شراستي، وهذا لم أعهده في نفسي من قبل، لقد تحولتُ الى غول مؤقتاً، الى كائن متنمر متوحش أكاد نفسي لا أعرف نفسي، ولا من أين أو كيف أتتني كل هذه العدوانية وهذه الشراسة النادره، انحنيت فوقه مرتكزا على ركبتيّ، مكمماً فمه بيديّ المكبلتين معا، منقضاً بأسناني على حنجرته التي كانت بارزة بما يكفي لتسهيل مهمة عضه، وأطبقتُ عليها بفكيّ القويين، في قضمة واحدة، حتى أخرجت حنجرته من مكانها وبقيت على هذه الحالة حتى أسلم الروح ومات

تماما. ثم التفت الى رفيقه الآخر الذي لايزال يقضي حاجته ويتلهى بالذبابات المشاكسات التي تحوم حوله، ولا يعلم بشيء مما يحدث الآن، اختطفت البندقيه، وابتركتُ على ركبتيّ بسرعة حتى لاينتبه اليّ، وصوبت فوهتها نحوه، وضغطت على الزناد، فأرديته قتيلا باطلاقة واحدة ليس أكثر، حتى لا ينتبه من قد يكون بالقرب منا ولم نره. لقد انتهى الأمر كله في دقائق معدودة، داهمني ارتياح لأنني لم أُقتل وليس لأنني قتلت شخصين بدم حار، ولكن هل يمكنني الهروب والخروج من منطقة الخطر والوصول الى وحداتنا بسلام. دخلت في مرحله جديده تتطلب اجراءات مختلفة وسلوكا مغايرا. جاءتني فكرة أن أكسر قيدي، وأحرر قدميّ ويديّ أولاً حتى أتمكن من قيادة السيارة دون معوقات وأتمكن من الجري بسرعة اذا ما استدعت الحاجه الى الفرار، وذلك برميه بالرصاص حيث توفرت لي كمية من الذخيرة وعدد من البنادق كانت بحوزتهم. وهذا ماكان فعلا، حررت قدميّ أولا رغم أنها عملية معقدة وخطرة، وليس من السهل تصّور ذلك، أدرت محرك السيارة وانطلقت بها مواصلا الرحلة صوب الشمال، حيت الجبهة الأمامية، وحيت يمكنني الالتحاق بقواتنا المرابطة هناك، بعض ممن يقابلونني في الأتجاه المعاكس، يلوحون اليّ ويحيونني بأيديهم وهم لا يعرفون انني قد قتلت جنديين من رفاقهم، وأنا بدوري أرد على التحايا بشكل خاطف وسريع، متشبثا بالمقود وأنظر الى الأمام متظاهراً الانشغال والاستعجال والحرص على عدم اضاعة

الوقت، وكأنني لم أفعل شيئا، كأنني ماقتلت نفسين معا، متجنبا كثرة الالتفات والنظر اليهم بوضوح حتى لا أمنحهم فرصة للتشكيك، هيأتي هي الأخرى تخفي شخصيتي تماما، شعر رأسي طويل، وكذلك شعر وجهي كث، وأحيانا اضع عمامه مما يزيد في التخفي، الى أن تجاوزت منطقة الخطر، ولكن الطريق ليست واضحة وغير معروفة المعالم لدي، فتتشابك المسارب والمماشي المطبوعه في الذاكره التي أثق فيها، لكن الأنسان عندما يكون خائفاً أو مطارداً، تختلط عليه الوجهات، وتتشابه المعالم وتغيب عن باله الحقيقه، ويضحى تائها بالمعنى. لا نقاط استدلال ثابتة ومميزة يمكن الاهتداء بها لبلوغ الوجهة المقصودة، فالمسارب الواضحة اليوم قد تختفي غدا، اذ تزحف عليها الرمال المتحولة وتطمسها نهائيا، لكن الترحال في الصحراء يحتاج الى شخص عرك الحياة فيها ويخبرها جيدا، ويعلم أسرارها، يكون عائشا بين جنباتها، لأنها مليئه بالتضاريس والمعالم المتشابهه التي تؤدي الى التيه، والى حد أن تختلط وتلتبس عليك الأمور، فتجزم وحتى تراهن بأن هذا المكان قد مررت به قبل ساعة أو أمس لشدة تشابهه بمكان آخر قد مررت به فعلا قبل ساعة أو أمس حتى تشك بأنك تائهاً وتدور في حلقة مفرغة، الجبال، كثبان الرمال، الأودية، حتى الأشجار متماثلة، كمن يصاب بالدوار، تختلط عليه الأشياء، ويصبح مشوش الذهن، ومرتبك، خاصة بالنسبة لهارب مثلي. وقبل أن يغامر بخوض الطريق، عليه أن يضع في حسبانه

العديد من ألأمور الهامة، بالأخص الكثبان الرملية العالية، الناعمة، فهي موحلة، والتي عادة ما تعترض طريقه، فيوقف السيارة ويترجل عنها لمعاينة المكان مباشرة، ويتأكد بنفسه من صلاحية التراب باللمس والدوس عليه بالأقدام، ومعرفة مدى تماسكه وصلابته وليس بمجرد القاء نظرة عابرة من بعيد على الأرض وذلك قبل أن يغامر ويتورط فيه، حيث تغرز عجلات السيارة في الرمال الناعمة والأراضي الرخوة اللينة وعندها يصعب تخليصها الا بعملية شاقة وتأخذ وقتا اضافيا طويلا، وهذا يعاكس رغبته، لأنه يسابق الزمن، ولا مجال لتضييع الوقت بالتوقف المستمر، فقد يكون أحدهم اكتشف الأمر ووجد الجثتين ملقاتين – من يدري – وربما منهم من يلاحقني ألآن، ويقتفي أثري على غيظ وحنق، وهو على وشك اللحاق والامساك بي ليفوز بالصيد أولا، فكلما حافظت على المسافة البينيه أو زدتها وأنا أسابقهم أكون في مأمن منهم، حتى ندخل منطقة ألأمان. انهم أكثر مراسا مني في التعامل مع هذه البيئة القاسية، وخوض عباب الرمال، والأراضي الوعرة. لذلك يغّيرمساره الى درب آخر أقل خطورة، ويكون عبوره أسهل، وبذا يكون قد كفى نفسه أحد شرور الترحال في الصحراء، استمر يشط على نفسه كي يتمكن من بلوغ مرابض قواتنا.

في الليلة الثالثه وعند غبشة المساء، تراءى لي ضؤ يقبسُ في البعيد، آثرت التوقف في مكاني والأنتظار للترقب، وعدم التحرك لملاقاتهم، الى أن يقترب مصدر الضؤ، لأستجلي ألأمر، وأتبين هوية القادمين، أخفيت

السيارة في مكمن آمن وبقيت أنتظر الى الصباح، حيث واصلوا استطلاعهم بعد المبيت، وعندما اقتربوا مني، وأنا أراقبهم بالناظور واتابع تحركاتهم، فتعرفت على نوعية العربة وعن تبعيتها، وخرجت من مكمني واعترضت طريقهم فجأة ملوحا بكلتا يديّ، فارداً أصابعي حتى يتأكدوا من سلمّية التقابل، وأومىء لهم وكأني أستغيث بهم كعادة العطاشى في الصحراء، وأطلب نجدتهم، تقدموا ناحيتي شاهرين سلاحهم، الى أن اطمأنوا لي وآمنوا جانبي، شرحت لهم وضعي، وبينت لهم أنني أسير منذ سنوات وقد تمكنت من الهرب من الأسر، منذ أربعة أيام، اقتادوني الى مركز القيادة، بعد أن استلموا الأسلحه والسيارة التي كانت بحوزتي، لكنهم لم يصدقوني ولم يعتدّوا بما أقول، فشكلي لايوحي بأنني واحدا منهم وبشرتي أصبحت شديدة السمرة لكثرة ما تعرضت للعراء ووأشعة الشمس، شعور رأسي ووجهي طويلة متهدلة كهيأة الانسان القديم، والملابس الرثة، رغم أن كل المعلومات التي أرويها لهم صحيحة، وتعتبر أدلة علي صدق اجاباتي، بعد سلسلة من التحقيقات الدقيقة تم التأكد من حقيقة هويتي، وتم الاعتراف بي. نقلت الى المستشفى بأكبر مدن المنطقة، وتلقيت العلاج لمدة شهر، وأثناء اقامتي بالمستشفى، جمعتني الصدف بجريح يقيم الى جواري، حدثني عن اسير قد سمع عنه وتناقلت الألسن خبره في نفس المدينة التي كنت بها، قد ربطوه بقائمة بقرة وبقي ثلاث سنوات مقيدا بها، وبعد اسبوعين من اختفائه وجدوا البقرة نافقةً وهي شاخصة بعينيها ناحية الشمال الى المكان الذي اختفى عنده.

2
(الصاحب)

غسلتْ جسمَه الأمطارُ التي تهطلُ بغزارة ودون توقفٍ، وتقطرُ ملابسه بالمياه كأنها سحابةٌ وتسقط منها مطرٌ أخرى، يسيرُ بخطىً حذرةً وهو يتبصرُ مواضع قدميه، ويتعثر في ثيابه الصوفيّة الثقيلة بعد أن تشربت بالمياه الكثيرة، يرتعد من شدة البرد، ترتجفُ أطرافه وتصطك أسنانه، مما اجبره على البحث عن ملاذٍ عاجلٍ في هذه اللحظات الحرجة التي تضيق عليه شيئاً فشيئاً، لإنقاذ نفسه من الموت الداهم برداً، واسعافها قبل فوات الأوان، إذ تنخفض درجة الحرارة في هذه المنطقة الجبلية خلال فصل الشتاء الى معدلاتها الدنيا خاصة وان الليل يقترب، انتظر نهاية المطر لكن على ما يبدو أنها لن تتوقف قريباً، فالسماء لا زالت ملبدة بغيوم داكنة ومليئة بالمياه، وتزداد تراكماً واكتظاظاً وتنذرُ بالمزيد وليس العكس.. وهو

في غمرة هلعه يسمع على مقربة منه صوتَ كشطِ مجرفةٍ متواصلٍ دون أن يراه، بسبب خيوطُ المطر الكثيفة المنهمرة بلا هوادة والتي تصنع ستاراً حائلاً، انه أحدهم يجدد اصلاح ساقية صهريجه كي تنقلَ المياه اليه ويمتلي في اسرع وقت، ربما يتوقف المطر، يكافح وسط هذا الجو الماطر باستبسال غير عابيء بالبلل قبلَ انّ تتوقف السيول المتدفقة الى نهاياتها الحتمية، وتضيع في مجاري الأودية دون أن يمتلي صهريجه، إذ انه سيعود عما قريب الى بيته المجاور ويبدّل ملابسه المبتلة بأخرى جافة ونظيفة وكأنه ما كان مبتلاً. اقتربَ منه أكثر تقوده أذناه وحدهما الى مصدر صوت الكشط، وعندما تبينه ازداد اقتراباً منه حتى يمكّنه من سماعه بوضوح، فصوت المطر وهو يجلد الأرض بعنف يخلق ضجيجاً عالياً، حتى اصبح على بعدٍ أوضح منه وبادره بالتحية : — السلام عليكم.. أعانك الله يا أخي. فرد عليه تحية مقتضبة خالية من اللطافة ليشعره بانه غير مُرحَبٍ به لأنه قد جاء في وقتٍ غيرَ مناسبٍ. توجه اليه بطلبَه في استحياء:

— يا أخي أنا عابر سبيل وكما تراني بأم عينك بين مطرين مطر فوقي ومطر تحتي، والمسافة بيني وبين وجهتي التي أقصدها لازالتْ طويلة.. وحالة الجو ليست خافية عليك، ألتمسُ منك حمايتي من المطر الذي ينهمر منذ بدايته على رأسي، بأن تأويني هذه الليلة عندك، وقد بللني كثيراً حتى انه يهدد حياتي واعتبرني مدين لك بها. أجابه الرجل بجفاء ودون ان ينظر اليه حتى: — المكان الذي

ليس لك فيه أصحابٌ لا تقصده. فما يحدث لك الآن إلا لأنك لا أصدقاء لك هنا والا لكنتَ في حمايتهم الآن! صُدِمَ عابرُ السبيل بهذا الرد القاسي غير المتوقع في مثل هذه اللحظة التي تجب فيها إغاثة كل غريب محتاج، أي يكون هذا الغريب، إذ ليس من اللائق عند الكرماء أن يقابل بهذا الاسلوب الخشن الجارح، لكنه ابتلع مرارةَ الردِ، وتصاغرَ ضاغطاً على نفسه كي تحتملَ الموقف ولا يبدر منه أي تصرّف غاضب قد لا ينفعه، وهو يتمتم في سره (لدي أصحاب ولكن أينني منهم الآن، وأينهم مني؟). ورد عليه: — أنا يا أخي عابر سبيل ومن سؤ حظي صادف أن أمطرتْ هذا المطر غير المتوقع كله وبهذه الغزارة في هذا المكان. ولكن ما علينا، لتكن أنت صاحبي في هذه البلدة منذ اليوم، ونصبح أصدقاء مدى العمر وتأكد انك لن تندم فأنا أهلٌ لها وللمعروف. لمس الرجلُ في إجابته الكثيرَ من الإعتدادِ بالنفسِ والنبالة، فشعرَ بالخجل ورقَّ قلبه، فقبل باستضافته عنده هذه الليلة، وفي الطريق الى البيت وهما يتحدثان سأله عن نَسَبِهِ، وعن المنطقة التي ينتمي اليها، على غير ما جرت به العادة، فقال له أنا من " مزدا" .فتذكر الرجل المضيف شيئا مهماًعند سماعه للكلمة الأخيرة، له علاقة به وقال للضيف : — "مزدا"؟! إن أبي قد قال لي قبل موته بأن له صاحباً وفياً وشهماً، ويستحق هذا اللقب عن جدارة، يعيش في "مزدا" وأوصاني اذا ما ساقتني الظروف الى هناك في أي وقت وموقف بأن أبحث عنه وأستجير به دون غيره، وخاصة اذا ما

ضاقت الدنياعليّ وأظلمت في وجهي، فهو لها، واستطردَ المضيفُ أنا لم ألتقِ به من قبل ولم أره في حياتي ولكن اسمه " أمحمد الطبيب" . صمتَ الضيفُ ولم يرد عليه وتجاهل الاسم، لكنه قال لمضيفه : — الصداقة بالنسبة لي امرٌ جِدُ مهم، ودائما أعرّفُ بين اصدقائي الذين لا يعرف بعضهم البعض، وعندما ادركُ ان صاحبي هذا يليق بذاك، اقدمهما لبعض معرّفاً بينهما دون تردد، واعتبرها هدية أبدية مني لكليهما وليس هدية العمر وحسب، لأن الصداقة مثلما علمني بها ابي وعوّدني عليها يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ولا تنتهي عند جيل بعينه بموت الأصدقاء أنفسهم، وبمرور الوقت سيعترف لي كل من الصديقين بان الآخر انفس كنز قدمته له، وعندما اتخذُ صاحباً لا يهمني كثيراً من أي ملة أو نحلة يكون، المهم لدي انه يستحق ان يكون صديقاً وهو أهلاً لصداقتي، بالنسبة لي كل انسان عندما التقيه اول مرة اتوسم فيه الخير، واستبعد الشر كلية، الى ان يأتي بالعكس ويثبته. ذهبا معاً الى غرفة استقبال الضيوف، أوقدَ له النارَ وجَفَفَ ملابسَه المبتلة وتعشيا معاً ونام الضيفُ في الدفء، وفي الصباح قدم له وجبة الإفطار وهمَّ بتوديعه ومشى معه مسافة كواجب وداع معتاد، والضيفُ يحدثُ مُضيفَه مذكراً قبل ان يفترقا قائلاً له : — إذا طوحتْ بك الظروفُ في يوم ما الى بلدة (مزدا) فسلْ عني وستجدني أو ابني قريباً منك، ان إسمي (امحمد الطبيب). وما ان سمعَ المضيفُ الإسم حتى لطم جبهته بكفه ندماً على الطريقة

التي قابل بها ضيفه، وما قاله له في بداية اللقاء مساء أمس، وقال متحسراً: — إذن أنتَ صاحبُ ابي الذي أوصاني به ! ولماذا لم تقلّ لي ذلك منذ البارحة عندما إلتقينا، وأوضحتُ لك ان إسم صاحب أبي هو (امحمد الطبيب)، فرد الضيف : — هه هه هه كي أعرفَ المزيدَ عنك منك شخصياً. وأضافَ الضيفُ وهو يشعر بالارتياح العميق: — إذن لدّي صاحب في هذه البلدة وليس كما زعمتَ في بداية لقائنا!.

3
(الدهليز)

دخلتُ الكهفَ فوجدته شبه مظلم ومملؤاً بالجماجم المهشمة، والهياكل العظمية المبعثرة كالحطام مما يبيّن ان الجثث قد وضعت دون ترتيب، فاجأتني رؤيتها ووجودها غير المتوقع في هذا المكان الذي أدخلني اليه الفضولُ وحبُ الاستطلاع، بعد ان غلبا ترددي وتوجسي. صُعقتُ لمرآها وأنا أتساءلُ الى أي زمنٍ تعود هذه الجماجم وما الذي اتى بها الى هنا، تكهنتُ ربما هي حياة قديمة كانت مزدهرة في هذا المكان، في أوقات سحيقة قد حافظ عليها الكهف من البياد والتلف، أو ربما أنهم ضحايا لأحدى المجاعات القديمة عندما لم تجد بعض العائلات ما تأكله فطمروا أنفسهم أحياء، أو هم ضحايا لحروب غابرة، يضمهم هذا المدفن الجماعي، وربما قد تم قتلهم غيلة عندما كان الانسان متوحشا لا مكان في قلبه للرحمة مثلما

هو اليوم، وقرر جلادهم عدم الاستماع الى توسلاتِ هؤلا الجنود الأسرى وهم يستنجدون منه العفو. لا أعرف بالتحديد ان كانوا جنوداً وتم قتلهم وهل هم غزاة قدموا محتلين من أوطان بعيدة كي يحتلوا هذه البلاد، وربما احتلها أجدادهم في السابق ونكلوا بأهلها الأصليين؟، أم ان هذه المقابر لأصحاب الأرض الذين دافعوا عنها ضد الغزاة حتى الموت؟. أنظرُّ اليها مأخوذاً بدهشة ثقيلة، أو ربما خائفا، اذ عما قريب، ستذب فيها الحياة المؤقتة والطارئه وتتحول الى أشباح متحركة وعابثة أيضاً، وناطقة لتقول بلهجة غاضبة :

– لم تكتفوا بقتلنا وتلاحقوننا حتى في قبورنا؟!، سيطر عليّ هذا الهاجس باحكام، مثلما كنا نسمعه ونحن أطفال صغار من أمهاتنا، وأضحى يقيناً راسخاً في اذهاننا، لأن كل من يُقتل غدراً يكون قد قُتِلَ ولايزال لديه الرغبة في البقاء حياً، لم يسأم تكاليف العيش بعد، الى أن باغته الموت على يد غائله، وهذا الصنف من الموتى يعود للحياة ولو على صهوة شاهدة قبره، على هيئة شبح كما نشاهد الآن ربما بأم مخي، أنظرُ الى الهياكل وكأن الأسنان أخذتْ تتحرك لتضحك ضحكة الفارح المستهزيء بهذا الزائر الصيد، غير المتوقع الذي دفع بنفسه الينا كهدية، وليس لديه مهرب من قبضتنا، بدأت الجماجمُ جميعها تهتز وتتململ وأخذت فكوكها تتمدد وتضحك على اتساعها، وهُيءَ لي أني اسمع قهقهاتها تملأ اركان المكان، وحُفر العيون تومضُ بشعاع الحياة. الشعور المتساقطة حول الجماجم التي بعضها ملتحي

والبعض الآخر أمرد أخذت تتجمع وتعود الى امكنتها في الجماجم.
بدأت تذب في أوصالي رعدة قوية مثلما ذبتّ الحياة في العظام، وتزايدتّ الرعدة حتى تصلبتّ عضلاتُ اطرافي، نظرتُ يمينا ويساراً باحثا عن أقرب مهرب يخلصني من هذا المأزق الحرج الذي أوقعت نفسي فيه دون دراية حقة بالعواقب، وايقنت أني وحيد ولا أحد معي أرجو مساعدته، اضطراب شديد يعصف بي، ويحول دون قدرتي على الحراك، اذ لم أستطع تبديلَ خطواتي. تمكنتُ من الالتفات الى مدخل الكهف في محاولة مني لرؤية الضؤ الذي أرى فيه الونيس الوحيد في هذا المكان المهجور والمعتم والخالي من أي أثر لمخلوق غيري، عدا أكداس الجماجم والعظام هذه والتي تلمع بيضاء، بذلت جهدي لأتحدى العجز الذي حل بي، والوهن الذي أفشل أطرافي، حتى انطلقتُ بأقدام خائفه وترتعد، وسرعان ما فك قيدها وتحولت الى أجنحة، اذ أني لا اشعر بهما تلامسان الأرض، وكأني أطير طيرانا، تقودني قدماي تلقائيا على غير هدى، الغريب في الأمر والذي لم أجد له تفسيرا اني كلما حاولتُ التوقف أو تهدئة سرعتي العالية، أجد نفسي عاجزا تماما عن ذلك، وفقدتُ السيطرةَ على أطرافي وخاصة نصفي الأسفل وكأنه ليس جزء مني ولا مرتبط بي ويقع خارج نطاق سيطرتي، وهي منفلتة وتندفع الى الأمام بحركة آلية تنهب الطريق نهباً، كالوعل الجافل، غيرعابيء بما يصطدم بأقدامي من أحجار وشجيرات صغيره تعترض مساري، وما تقع فيه من حفر

ومنخفضات، تحركني قوة إضافية خافية عارمة أضعاف قوتي الأصلية وتدفع بي الى الأمام .. لم يتطرق اليّ الاعياء ولا أحسستُ بالتعب اطلاقاً، أجري وأجري بفورة متزايدة الى الأمام وكأنني لا أجري، وأحس بأصابع أيدي بعض الهياكل العظميه المتسابقة في أثري تلامس كتفي، وتحاول الامساك بي بغية ايقافي، لكنها لم تتمكن. كل ما أعرفه أني أذرع المسافات جريا وأجوب الفيافي وأركض بلا هواده، أعبر أودية وسهولاً وأصعد جبالاً دونما توقف ولاحتى تهدئة، ولم أحتجّ الى قسطٍ من الراحة، الارض تمتد أمامي وأنا أطويها وكأنني لا أرى وربما لو قابلتني شجرة أو أعترض طريقي حائط لاصطدمتُ به أو قد أخترقه، تأكد لي بأني أجاري الشمسَ، هي في سمائها وأنا على أرضي وأسابق الريح، أدركتُ أن الانسانَ يمتلك قدرة هائلة على البناء والتحمل والمجالده ومواجهة الصعاب، وأن له قوة خارقة يستطيع بها أن يهد الجبال، أو يلامس السماء اذا ما اشتهى ذلك، أو ربما يثقب الارض ليجعل منها خرزة يضعها في عِقدٍ مع بقية الكواكب، ويعلقها في عنق الكون. وكلما توقعتُ أن يقل هذا الشطط، وتضعف هذه الحالة النشطة، ويخف الجري أو يتباطأ ولو قليلا أجد العكس هو الذي يقع، فلازلتُ بنفس العنفوان وذات الاندفاعة القوية التي في البداية، ان لم تتزايد. أخذتْ الأرضُ تهتزُّ تحت أقدامي في حركة ارتعاشية سريعة، كحركة الغربال عندما ينخلُ، كي تنشق وتبتلعني، أدركتُ اللعبة التي تحاك ضدي، ونطيت مبتعدا نحو مدخل

الكهف الذي وجدته أمامي من جديد، انه نفس الكهف الذي خرجتُ منه هارباً من الهياكل الآدمية التي خرجتْ تلاحقني، ها قد وجدت نفسي مدفوعاً للعودة اليه مرة اخرى حيت لايزال يتسرب منه الضؤ. إعترضني أحد الهيالكل العظمية واستوقفني قائلاً : – نريدكم أن تبقوا معنا هنا، فالحياة التي تعيشونها هامش لا تساوي جناح طائرة، ولا جرعة أنسولين ولا ولا ولا ... ولا قيمة تذكر لها، لذلك فهي من المهد الى اللحد وكأنها بعض يوم، تنتهي بسرعه وفي لمح البصر.

4
(الوديعة)

كنتُ أقود سيارتي في هذه الاوديه البعيدة عن الحواضر، حيث تجثم نجوع وخيام البدو ما امتدتْ هذه الاودية وتشعبتْ.. وكلما اقتربتُ من أي نجع، فجأة تهاجمني قطعان الكلاب الحارسه لهذه النجوع، وتطاردني جارية ورائي حتى اتجاوز حرمات المخيم، ويصبح لا خطر مني، فتعود القهقرى، وتنسحب الى مرابضها وانا أتابعها في مرآة السيارة الجانبية، وهكذا الى أن أمرُ بالنجعٍ الذي يليه، ويتكرر معي ذات الموقف، تهاجمني كلابه الحارسة وتتعقبني الى أن تقصيني عن مرابعها وتسلمني الى حِمَى أخرى ثم تعود. ولكن ما حدث معي وهذا القطيع الأخير أمر غير متوقع، واختلفَ تماما عن بقية القطعان المهاجمة من الكلاب.. إذ انطلقتْ الكلابُ النوابح في أثري

حتى المسافة الآمنة لها، ثم عادتْ جميعُ الكلابِ بعد أن توقفَ نباحها – واحسستُ ذلك بوضوح واطمأنتّ نفسي لذلك – الا كلب واحد استمر في ملاحقتي بأقصى سرعة ممكنة له، صامت، يجري باريحية فلا تلاحظ انه مشحون بغضب الكلاب المعتاد وشراستها ضد من يهاجمهم، بل وترتسم على وجهه علامات الرضا والسرور، ويبدو أن لا هم له الا عدم إفلاتي منه، انتظرتُ وأنا أخفف سرعة السيارة، وفي ظني أنه سيتوقف ويعود ليلتحق برفاقه، الا أن شيئا من ذلك لم يحدث منه، بل استمر في اصراره وازداد في عناده وسرعته، وتشبث اكثر بفكرة اللحاق بي، وبدأ تصميمه واضحاً على مواصلة تتبعي الى النهاية، كمن عثر على ضالته التي طال بحثه عنها، لازلتُ اتابعه في المرآة وهو صامت مما يدل على انه يسالمني، وله مأرب آخر لم أهتدِ لمعرفته بعد، يمتد لسانه لاهثاً ويجري ورائي دون توقف في مشهد ملفت.. فاستغربت أمره، وهالني أن بقية الكلاب قد ولت الأدبار الا هو لم يتراجع عن مطاردتي وبقي يلاحق السيارة، ان في تصرفه الغريب هذا سراًغامضاً وملفتاً، وعليّ محاولة معرفة ماذا يريدُ مني، فابطأتُ السيرَ علني أكتشف شيئاً جديداً، حتى اقتربَ الكلبُ من مؤخرة السيارة وعندما توقفت وترجلت من السيارة بقي على مسافة آمنة مني وهو يهز ذنبه عاليا فرحاً بكل طاعة وبشاشة ويقصقص في سلام، وفي هذا دلالة على ترحابه بي واحتفائه بمقدمي وبعثوره المفاجيء عليّ، مما طمأنني الى حد ما اليه، وهذا لا يحدث الا مع

كلب قد سبق التعرف عليه أو تربيته والعيش معه في مكان واحد، او أنك صاحب فضل عليه، وليس طارئا كهذا الحدث، وجدتُ نفسي ملزماً بتذكر متى وأين تم ذلك، ازددتُ اقترابا منه وأنا أكثر توجسا وحيطة، غير مصدق لما يجري، لكن على حد علمي وأنا على ثقة من أن الكلاب لا تخادع ولا تخون كما وانها لا تنسى اطلاقاً، الانسانُ ينسى الكلبَ بينما الكلبُ لا ينسى صاحبه، أخذتني الدهشة وأنا أنظر اليه بتمعن ولازلت اتساءل في استغراب، ما الأمر؟، فتقدم مني مصدراً ذلك الصوت الهادىء وكأنه يطمئنني ويتودد اليّ من جديد، ويريد أن يتسلق قامتي ليعانقني، بينما أنا واقف فابتركتُ على ركبتي طوعا له، وأخذ يعانقني، ويتشممني بلهفة، وكأنه يشبع نهماً قديما ظل يلح عليه ويصرخ في ذاكرته طيلة المدة السابقة، ليس من عادتي زيارة هذه الأمكنة، فكيف عرفني هذا الكلب، وهو لايزال يتوسل اليّ وكأنه يلح وينتظر مني أن اتذكره واتجاوب مع فرحه بلقياي، ادركت بانه قد تعرف عليّ لكنني انا الذي لم أهتدِ الى تذكره بعد، أخذت افكر بتمعن علني اهتدي الى أي موقف لي له علاقة بالكلاب، أو بهذا المكان، طبطبت خلف عنقه، ثم مررت كفي برفق على ظهره عدة مرات متتالية، فاستكان تماما في بشاشة وأدعنَ لي ماداً رأسه الى الأمام على الأرض، وتحت الحاح يقيني مني بأن أنوف الكلاب لا تخطيء أبدا، وأنها حيوانات لا تنسى وتمتلك مشاعر نادرة تجاه كل من تعرفتْ عليه وعاشت معه في السابق، مما الزمني بإعتصار

ذاكرتي والبحث فيها عما ربطني بهذا الكلب ليؤكد لي أن حدثاً ما قد وقع لي في الماضي معه لكنني نسيته، وقد انتهى كلُّ التباسٍ وبطلَ العجبُ، عندما تذكرتُ أنني لا علاقة لي بهذا المكان الا بموقفٍ واحدٍ، عندما جئت الى هنا منذ ثلاث سنوات مضت، حاملاً جرواً صغيراً بغية التخلص منه، بعد ان غممته بكيس خيش كي لا يرى ويتمكن من التعرّف على طريق العودة ويتبعني، فأودعته هذا المكان، وانصرفتُ لحالي بأقصى سرعة متخفياً متخليا عنه.

5
(الغول)

ذات خطرة، وأنا صغير كنتُ مع أمي وهي تقودني ممسكة بذراعي ونتمشى معاً على حافة الـوادي المـزروع مختلطاً بالقمح والشعير، أخضر ريّان وكثيف بقاماتِ سنابله الطويلة التي لم تلوِ رقابها بعد، تتمايل هنا وهناك في ملاينة، وتمورُ بتثاقل في تموجات لدّنة منتظمة جميلة مع نسمات الضحى التي تقوى وتضعف بين فينة وأخرى، فثارة تقتربُ السنابل منا وأخرى تبتعدُ، وأنا وأمي نسيرُ برفق معاً إذ انها تطوّع خطوها فتبطئها الى أدنى حد، وفق خطوي الهادئ، ولكن عندما تهب النسائم هبات قوية تحنو السنابل قاماتها وتميلُ من جديد الى أقصى ما يمكن نحوي، ثم ترتدُّ منعكسة الى الناحية الأخرى في ديدن منتظم، وكنتُ اتابعها واتأملُ حراكها دون أن تنتبه أمي اليّ، الا أنني خِفتُ من حركة هذه السنابل المشبوهة أثناء اقترابها

مني، لأنني أنا الذي كنت في الناحية القريبة من الزرع وليستْ أمي، وتهيأ لي كطفل صغير أن السنابل تريد مهاجمتي وإفتكاكي عنوة من قبضة أمي، لتختطفني وتطوح بي هناك بعيدا وتخفيني عنها في وسط الزروع المترامية الشديدة الاخضرار المائل الى السواد، والتي بدورها ستلتهمني، فأجفل مبتعداً هارباً الى الجهة الأخرى لأحتمي بأمي ومحاولاً تخليص ذراعي من قبضة يدها — وانا أصرخ بقوة — والانطلاق الى الجهة البعيدة. أدركتْ أمي السببَ، الا أن المشهد راق لأمي ولم يرقْ لها في نفس الوقت، فهي لا تريد ان تراني أرتجف خائفا مدعورا .. وانها من جهة ثانية على علم أكيد بأنني واهم، واستلطفتْ ما تراءي لي من تخيلات، وحاولتْ إفهامي أن الزرعَ لا يلتهمُ الانسانَ، بل ان العكس تماما هو الذي يحدثُ، الإنسانُ يلتهمُ الـزروعَ، فسعتْ الى تهدئتي وطمأنتي من جديد بأن ضمتني الى صدرها مواسية، وتطلعتْ حولها وتفقدتْ المكان ويبدو أنها عندما لم تجد أحداً سوانا أخذت تقهقه بكل حرية وثقة من الموقف الذي جرى لنا، أحترتُ في أمرها بعد أن توقفتُ عن البكاء وحدجتها مليا بنظرة لوم متسائلاً، كيف يحدثُ هذا؟، أمي تضحكُ مني لأنني أبكي، وهي التي كانت تسعى دائماً بما أتيت من وسائل الى استرضائي وعدم إغضابي لو هذا ما أعادَ لي الثقة بنفسي، فازدادتْ امعانا في الضحك وهي تضمني بشدة الى صدرها وتوشوش في أذني بعبارات تهدئة دافئة وتحنو عليّ في رفق، لكنها أخذتْ تكرر العملية في أيام

تالية، لأنها وجدتْ متعة في اضحاكها بهذه الطريقة.. تلك التموجات ترسمها الرياح بالسنابل، فالذي يريد اختطافي، هو الريح والتيارات وليست السنابل التي سنأكلها مستقبلاً عندما تنضج، هكذا أوضحت لي أمي كل مرة فيما بعد!..

6
(المغدور)

(صورة مسبقة لموتي)

انقطعتْ صلتي بالدنيا منذ ان اخترقتْ رأسي تلك الرصاصاتُ الغادرةُ، وبقيتُ من بعدها ملقى على الأرض دون حراك، وفي اهمال على حافة الطريق.. وقد سالتْ الدماء قانية مني وشربها ترابُ الأرض العطشى، فهل قطرات الدم هذه ستنقذ حياة الأرض العطشى أم ان الماء وحده من تحيا به الأرض بعد موات ؟، وسيتركونني مهملاً مثلما تركوا جثثاً كثيرة شاهدتها تتنُ وتتفسخُ عندما كنتُ على قيد الحياة منذ لحظات، حيث لا أحد لديه فائضٌ من الوقتِ للإهتمام بميتٍ قد إنتهى أمرُه وأصبح في تعداد الأموات لا قيمةَ له، فلا أحد استطاع التعرّف على صاحب الجثة حتى يمنحها إهتمامه الواجب.. سأبقى الى أن ينتفخَ الجثمان الى أقصى حدٍ بعد ان يبدأ في التفسخ والتعفن ويضعف نسيج جلده ثم ينفجر وتخرج منه الديدانُ الدقيقةُ البيضاء

الدائمةُ الحركة والنهشِ بكميات هائلة، سبحانه (الذي يخرج الحي من الميت)، تمضي أيامٌ ولا يبقى مني الا هيكلٌ عظميٌّ بضلوع متكسرة وجمجمة مثقوبة وبقع دهون قد تتبخّر أو يشربها تراب موقع الجريمة، يا ترى لو تبرعتُ بهذه الأعضاء قبل موتي لتزرع في من يحتاجها كحالة من الإفتداء؟، وخاصة لأناس تحبهم، وأكون قد ساهمتُ في استمرار حياة أحدهم ولو لمدة قصيرة، رغم يقيني التام بان الروح لا تزرع. لو لم يكن الموعدُ القدري دقيقاً جدا بين مروري من هذا المكان وخروج الطلقات من فوهة البندقية المجهولة لحظة وقوع حادث القتل العشوائي هذا الذي أنا ضحيته، أو تاخرتُ (انا) ثوانٍ عن الخروج من بيتي أو تباطأ هذا المتلاعب المجنون قليلاً في الضغط على الزناد، لكنتُ الآن من بين الأحياء مثلكم تماماً وليس من الأموات كما ترونني الآن، فالحادث ليس مبيت له ولا متعمد، والبلاد ليست في حالة اقتتال، والحرب قد انتهت منذ سنوات مضت، حتى تبرر اطلاق النار المتهور، وانا لم يدرّ بخلدي ان اقع ضحية العشوائية والطيش الغبي، ربما الذي أطلق النار كان مبتهجاً وفرحاً بحدث ما يخصه، كعرس أو عيد زواج وعبّر عن بهجته وفرحه باطلاق هذه الرصاصات في أعالي الهواء كي تصيبني بالصدفة واحدة منها، لأصبح ضحية فرح مجنون، وتكون آخر مرة رأت فيها عيناي النور، كما تشاهدونني الآن، هو لم يكن يتعمد قتلي ولا يدرك انها ستصيب عابراً بريئا في مكان ما تصله الاطلاقات، لكنه كان أحمق وغبي لأنه في غمرة فرحه لم يتوصل الى

ادراك عواقب فعلته الحمقاء، فأنا لم أكن أخاف الموت ولكنني أخشى أن أقتل غيلة، أو يتم التمثيل بجثتي وأسحل على الأرض كذيل الريح، وليكن معلوماً لديكم انني أحب الحياةَ جداً، ومهما ضاقتْ بي الدنيا ما تمنيتُ الموتَ يوماً، وما تذمرت من الحياة ولا سئمتها، وأشعر الآن بعد الذي حدث لي اني قد تركت لكم من المحاسن ما تذكروني بها، ولأنني منزعج منكم سأرفض العودة ثانية الى الحياة بينكم من جديد اذا ما عُرِضَ على ذلك. لكن قلبي الجميل الذي احبكم جميعاً والملقى الآن في اهمال صارخ بمحاذاة الطريق وينظر اليه أغلبهم بتقزز وإشمئزاز لايزال يهتف للعابرين بمجد الإنسان وينبض بحبهم.. الذين اسمع احدهم الآن بوضوح، يتحدث عني، وأراه بجلاء يشيراليّ في إندهاش متعجباً ـ انظروا الى وجه الجثة انه قد مات مبتسماً يا للغرابة ! ثم تساءل هذا العابر: — ألم يشعر هذا الميت بألم بينما هو يحتضر؟ كيف يستقبل الانسان موته بالابتسام مثلما اشاهد بأم عيني؟، ربما سئم الحياة الى درجة أن يفرح بالموت!. توقعتُ ان من بينهم من هو وقح وتافه ربما يستهين بالموتى وينتهك حرمات الجثامين الطاهرة، مثلما شاهدت هذا مراراً عندما كنت على قيد الحياة، فيركل وجهي على وهم منه بأنني عدو ولازلت حياً، واستعدُ كي اتقي ركلته بيدي، لكن لم يحدث شيئاً من هذا، الميت يحمي جثمانه ويدود عنه، تعلمتُ حقيقةً مهمة من ميتتي هذه، وهي ان الميت يحمي جثمانه ويدود عنه بعد موته، وكأنه لا يزال على قيد الحياة .

٧
(حوار الميت والحي)

هل هذا تكبرٌ أم مكابرة، لقد حاولنا كثيراً أن نثنيه عما عزم ومايزال يعزم عليه الى الغد، ونغيّر من قناعاته الراسخة منذ عشرات السنين، والتي ننزعج منها كثيراً، وعندما دخلنا معه هذا اليوم في سجال جديد ونقاش متشعب ومعقد، طاف بنا كثيراً محاولا الالتفاف علينا واقناعنا بما يعتقد هو، متعللاً ومفاضلاً بأننا أغرار حديثي العهد بالحياة فلا نعي منها الا القليلا، وبأنه يكبرنا بكثير ولديه من التجارب والخبرات مالم يتمكن مَنْ هم في مثل اعمارنا هذه المبكرة من ادراكه أو الوقوف عليه بوعي أصيل، قائلا: — أصغركم أشبكم قلباً وأكبركم أكبركم عقلاً. نحن من جانبنا كنا نجتهد لتعجيزه ونحاول توحيد آرائنا لتكون متوافقة ضده والإتيان بالبراهين وبالأدلة الدامغة، وهو يدافع وحده بحدة وصلابة عن رأيه وموقفه حيال الأمر

المطروح، سيكون حقا أمراً رائعاً اذا تمكنا من التغلب عليه واقناعه ولو جزئياً، بأن ما يقوم به هو لم يكن الا تعباً في تعبٍ وعبثاً في عبث، فهل مزاولة مهنة الفلاحة من الحراثة الى الحصد بالطريقة البدائية ودون إستخدام الآلات الحديثة والمتطورة التي تُوفر الوقت والجهد معاً، ولها ميزات أخرى، تعتبرعملاً مجدياً وموفقاً في هذا الوقت من عمر العالم، على هذا المحور بقي السجال والنقاش دائرين في احتدام بين كر وفر بين العم (سالم) وأبنائه وأبناء اخوته الذين يمثلون الجيل الطالع المستنير، لساعات طوال، هو يقول ان ذلك ممكنا مُعزاً ومشرّفاً أيضاً، والأولاد جميعاً على رأي واحد، يمثلون الأجيال المتطلعة الجديدة يعارضونه الرأي، ويرفضون الطريقة رغم انهم لايمتلكون الآلات ولا يستطيعون إمتلاكها، فالعم سالم متمسكاً برأيه ولا يقبل التفريط أو التنازل عنه، ويظل مصراً عليه الى آخر رمق، فالآلة التي لا تصنعها لا يعوّل عليها، لا يكفي على الإطلاق أن تتعامل مع التقنية الحديثة فقط، ولا تصنعها بيدك، الذي لا يساهم في بناء حضارة اليوم ويكون من صميم منتجيها لا يعبأ بالتمتع بمنتجاتها وهو قانع. ويرى الأولاد في ذلك إرتداداً الى الوراء وتخلفاً، لكنه يظل يسائلهم عن الإتيان بحل يوفر لنا ولأبنائنا من بعدنا الغذاء الضروري فقط، اذا ما حالت الظروف دون امتلاك هذه الآلات المسخرة لخدمتنا كما تدعون؟. كان في السابق يقرّعنا ساخرا منا ويصفنا بالعجز والضعف وقلة الحيلة، وأننا لسنا إخوة

حياة (الحياة مجرى وحيد ومتنوّع)فلا يقوى الواحد منا على إعالة اسرته ولا قوامين على النساء والأطفال طالما نعيش بهذا التفكير، واصفا لنا المجاعة التي تعرضتْ لها البلاد فيما مضى ونحن لم نُخلق بعد، بأنها كانت كارثة بالمعنى الشامل والكامل للكلمة، وأن بعض المشاهد المؤدية لا تطاق رؤيتها ولا حتى سماعها من شدة ما لاقاه الأهالي من آلام الى الموت جوعا، لكنها درس يجب ألا تنساه الأجيال اللاحقة (الذي لا يرى النائبات التي قد تأتي ولا تأتي هو أعمى)، ولا يُعَدُّ رجلاً من لا يستطيعَ أن يوفر الطعام لأطفاله، ويكفيهم شر القحط المحدق بهم في كل أوان و(كأنه يعيّرنا بذلك)، قال لهم: — أنا لا اتمسك برأيي عن فراغ أو لمجرد العناد كما ترتأون، بل أتحداكم جميعكم بأن تأتوني ببديل يوفر لنا الغذاء، أم تظنون ان الانسان يعيش بدون غذاء؟ فكروا أكثر، ستجدون أننا معنيون بتعلم ما هو أكثر من ذلك؟ وعليكم بتعلم مهنة الفلاحة، فالذي لا يعرف لا يمكنه أن يعلّم الآخرين، والذي لا يسأل لا يمكنه أن يتعلّم، فتعلّم الأشياء وأترك، ذات يوم ستحتاج لما تعلمت، وتجده جاهزاً لديك. كان الاولاد لا يريدون أن يرثوا الشقاء والتعب عن اسلافهم ويورّثوه لمن سيأتي بعدهم، فينادون وهم حيارى بالتخلي عن هذه المهنة وتركها الى الأبد لأنها من أصعب الاعمال وأشقها، قال العم سالم موجهاً كلامه الى محدثه: — كلمتك هي من يحدد مقاس تفكيرك، وجميع مبرراتكم نابعة من الكسل والتراخي الذي أصبح مرضاً متفشياً في العقول

المجايلة لكم، وليس من عقم المحاولة، لم يمر أي منكم بكارثة جوع في حياته، حتى يتعرف على حقيقة الجوع عن قرب، ويرى مايفعله بالمساكين المعدمين، أنتم تتكلمون من خارج التجربة من خارج الحياة، أغلب أبناء الأجيال الطالعة يميلون الى الأسهل والأخف، ويتجنبون التعب، دون مراعاة المنفعة أو البحث عن الجدوى، يؤثرون السلبية والتراخي، غير أن العجزلا يكون رأياً يعتد به ويعتمد عليه، العجز ذريعة الضعفاء، يا ولدي قد يوهمك الآخرون بشيء، هذا متوقع ولا غرو في ذلك، لكن ان توهم نفسك بنفسك ؟ مشكلتكم أنكم تعلمون الحقيقة، ولكن تتنكرون لها وتتجاهلونها، لأنها تتعارض مع أهوائكم الواهية، أنا أعملُ بالحكمة التي كان يرددها دائما على مسامعي والدي : (هزيمةالنفس نصر)، وأضاف : — أنا ليس لدي أطفال ملزم باطعامهم مثلكم، كبر أطفالي وأصبحتم رجالاً ولكن لا أرتضي أن أرى أطفالكم أنتم أيضاً ونساءكم يتضورون جوعا أمامي وأنا أتفرج عليهم، ويتساقطون الواحد تلو الآخر دون منقذ، فما دمتُ حياً ولايزال في جسدي عرق واحد ينبض بالحياة سأزرع وسأحرث كي أوفر لهم الأكل وأنا هانيء البال مرتاح الضمير مثلما وفرته في السابق لكم، أنا ادرك تماماً أنني قد لا أحتاجه في زمن السلم وقد لا أحتاجه ولا أمسسه اطلاقا، لكن اذا ما يفاجئنا الجوع أو يختل السلام في العالم، فتقفل البحار وتغلق الأجواء والطرق البرية وينقطع التواصل بين البلدان أكون أنا في مأمن من الجوع والفاقة، وهنا عصرَ

أحدنا ذهنه وتفتق على رد سيقضي على الذرائع التي يتحجج بها العم سالم اذ قال : — كيف يُقفل البحر؟ أجاب العم سالم : — أثناء الحروب واختلال السلم على الأرض. ثم أعقبه آخر : — ألا تعلم عندها يا عمي سالم أن ما خزّنته من قمح وشعير سيكمل ذات يوم، ربما بعد عدة شهور فقط، وتصبح مثل الآخرين بلا قمح ولا شعير، فرد العم (سالم) من فوره بكل لباقة : — ولكن الى ذلك الحين أو قبله سأكون قد حرثُ الأرضَ وزرعتها من جديد وحصدتُ وربما أنتجتُ شعيراً وقمحاً بكميات أكثر من المرة السابقة، لأن كلماتكم المحبطة التي سمعتها دفعتني الى المزيد من التحدّي والمزيد من الإقبال على الفلاحة والجد مع الحياة وعدم الإستخفاف بها. وفي اللحظة التي نكاد فيها اعلان تغلبنا عليه، نجده قد أتى بما يدحض كل ما توصلنا اليه من أفكار واجتهادات، حتى ان أحدهم تطوع بالرد متسائلا في محاولة أخيرة : — واذا لم ينزل الغيث، ولم تمطر السماء في هذا الموسم وربما الموسم الذي يليه مثل العادة هنا، ماذا ستفعل ؟ رد العم سالم يكفيني شرف أنني لن أخرج للتسوّل ماداً يدي دليلة من أول يوم لوقوع المجاعة، أحدهم يتصدق عليّ وآخر يتأفف مني وربما ينهرني. فيكون لدي ما يكفيني من الغداء ولو مؤقتاً، وحتماً ستخرجون قبلي لمد أياديكم وتتسولون. ولكن قال لي أبي ذات مرة: — يا بني لا تحاول إفهامَ شخصٍ شيئاً لا يستطيع فهمه، لأن هذا سيتعبك وهو في نفس الوقت لن يفهم منك.

8

(انا الناس!)

عند المجتمعات الرعوية والزراعية في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية، يعتبر المطر من أهم الاحتياجات النفيسة التي تعتمد عليها حياتهم، ولا يمكن الاستغناء عنها.. على الماء تقام الزراعة البعلية والمقتصرة على حقول الحبوب بأنواعها، وتعيش عليها أنعامهم كالإبل والأغنام. وبمجرد أن ينتهي فصل الصيف ويبدأ فصل الخريف حيث موسم الحراثة حتى يأخذ الناس المتلهفين منهم حد الهوس بهذه المهنة في إنتظار السحب على قلق وضراعة الى الله، وملاحقتها وخاصة الماطرة المليئة بالماء منها، ويتابعون مرورها وتنقلاتها من مكان لآخر في حالة هيام وهي تعبر سابحة في أعالي السماء وكأنهم يستجدونها أن تنزل ماءها لديهم، ومنهم من فكر لو يطير اليها ويعترض خط سيرها ويرغمها على تفريغ حمولتها من المياه ثم

يطلق سبيلها.. ويلاحظون البروق وهي تومض في الأمكنة البعيدة والأودية القصية ويغبطون مواقع هطولها، فيقول لك الواحد منهم أن هذه البارقة التي تومض الآن هي فوق وادي "الأثلة" أو فوق وادي "فيصل" ونادراً ما يخطئون رصدها والتكهن بأماكن سقوط ماءها، فالفلاح في المناطق شبه الصحراوية كأنه دوّار سحب (عبّاد ماء)، وتعد مهنة الفلاحة لدى سكان هذه المناطق عملاً شريفاً وبطولياً، لا يقوى عليه الا الأبطال النبلاء، ومن لا يهتم بالأمر ويهم بمنافسة بقية الناس على حراثة أوسع مساحة من الأرض لا يعتد به ولا يحسب له حساب، ويعدونه من الهامشيين وينظر اليه بإزدراء ودونية، فمن لا يفلح الأرضَ لن يجدَ ما يأكله، فهم محكومون بقيم من الصعب التخلي عنها. هطلتِ الأمطار بغزارة كافية هذا الخريف، وسالتْ الأودية وفرح الناسُ جميعهم كثيراً بذلك، لأن جلهم أو كلهم فلاحون ولكن على درجات، وينهمك الفلاحون في الإستعداد للشروع في عملية الحراثة، فيتفقدون محاريتهم وسككها الحديدية ليتأكدوا من صلاحيتها ويجهزون كمية البذور الجيدة التي يحتاجونها لزراعتها، وابلهم أيضاً التي ستحرث الأرض. ثم يخرجون الى الأودية المجاورة أو البعيدة، حيث يقيمون هناك لمدة تصل الى أسبوع أحياناً أو أكثر يقضونها بين الأودية لهذه المهمة. الشيخ "علي" أمر أبنائه باعداد عدة الحراثة، وبقية اللوازم، وتجهيز أنفسهم للسفر على ظهور الإبل الى الأودية التي تنتظر فلاحيها، لأنه يستعجل الخروج الى الأودية

كأي فلاح متحمس وجاد، قد بقي ينتظر على قلق هطول المطر ردحاً من الزمن. من العادة يتريث الفلاحون بعد تقطّع السيول حتى تمتص الأرض مياه الترائك وتزول البرك التي تشكّل وحولاً وتصبح الأرض زلقة لينة تعيق الحراثة والتحرك فيها، حدد الشيخ "علي"لأبنائه وقت الخروج في صباح الغد باكراً طالباً منهم الاستعداد لذلك، لكن أحد أبنائه أجابةً طالباً: — لكن يا أبي لنتريث قليلا ليوم أو يومين آخرين، حتى تخرج الناس أولاً ثم نلحق بهم، لكن الشيخ علي توجسَ الكسلَ والتراخي والإحباط من رد إبنه، وأجابه بإنفعال وتحدٍ : — أنا الناس الذين تعنيهم بكلامك !. وأكمل متباهياً : — أخرجُ أنا اولاً وأتقدم صفوف الفلاحين جميعاً، وبعد ذلك يُشارُ اليّ (أنا) بالبنانِ ويقولُ عني الآخرون : — هاهم الناس قد خرجوا لحراثة أراضيهم ..

9
(القهوة الضاحكة !)

هبطتْ بنا الطائرة القادمة من طرابلس على مدرج مطار (بنينا) بنغازي، حوالى الساعة الثامنة صباحا وبعد اتمام إجراءات الرحلة تقدمنا الى صالة الإستقبال، ومن بعدها سنتجه الى بوابة الخروج، وبينما نحن نتأهب للخروج، لاحظ الجميعُ أن أمرًا ما يحصلُ خارج الصالة ولا ندري ما هو ؟ ولكن تسريبات سريعة أفادتْ أن رجالَ الشرطة العسكرية تفتشُ في الخارج عن كل شخص عسكري لا يحمل تصريحا بإجازة، لإحتجازه والتحقيق معه، لمعرفة ما إذا كان هاربا من آداء الخدمة العسكرية أو موظفا وتاركا عمله دون أن يحمل معه تصريحاً بإجازة يبرر خروجَه في هذا الوقت، فقد كثر في هذه الآونة هـروب العساكر من الخدمة الإجبارية، بعد ان إقتنع الجميع بأن الجندية ليست عمل شرف وطني غايته الدفاع والمحافظة على سلامة

البلاد، بل التبجح من قائد يفاخر بان تحت إمرته جيش من مئات الألوف من الجنود المساكين، لذلك نجد أن أغلب الناس قد تنبهوا لذلك ورفضوا الإنصياع للأوامر الظالمة والقرارات التي تجبرهم على الإنخراط في سلك الجندية، فتمردوا على البقاء والعيش في وضع لا طائل منه، فأخذوا يتهربون من المعسكرات ويخلونها. أصابَ الجميع الرعب وأخذ كل من لايحمل أوراقا ثبوتية يفكر في كيفية تَخْلِيص نفسه من هذه الورطة، والجميع يعلم أن رجال الشرطة العسكرية تم اختيارهم بدقة ليكونوا علاند وفي أحيان كثيرة قساة ومدربون على الخشونة في التعامل حتى يهابهم الجميع ويرعبون العساكر، فينهالون بالضرب العنيف والمبرّح على كل من يناقشهم أو يرفض الإنصياع الى أوامرهم والإمتثال الى مطالبهم، وهذه الطريقة تتنافى مع طبيعة النفس الحرة. بعد فوات ساعتين تمكن بعض المسافرين وخاصة الكبار في السن من الخروج ومغادرة الصالة، والبعض الآخر تم لرجال الشرطة القبْضَ عليهم وإقتيادهم الى السيارة المصفحة الشبيهة بسيارات السجون التي تنتظرهم، وأنا كنت بلا أوراق تثبت براءتي وتجعلهم يخلون سبيلي دون مساءلة، ذهبتُ الى مقهى المطار لأشتري وجبة إفطار وفنجان قهوة كي أماطل وافوّت بعضَ الوقت لربما يقلقون ويذهبون لحالهم ويغادرون المكان، لكنهم استمروا في بقائهم وتشبثوا بالمكان طمعاً في إقتناص المزيد من الناس لأن التجربة علمتهم الكثير في هذا الشأن، ولأن إدارتهم ستدفع مكافأة مالية عن

كل نفر يتم القبض عليه فكلما كان العدد أكثر كانت المكافأة أجزل، بل وبعثوا نفرا من رفاقهم متخفين في لباسٍ مدني كي يستطلعوا الأمر داخل الصالة ويتأكدوا من وجوه الحضور ومتابعتهم ويحاولوا إحصاءهم، حاولتُ أن أخفي بعضا مني، أو أتنكر حتى أشوش على من هو يراقبني ولا أعرفه ولا حتى أراه، لكن أنا متيقن في النهاية من أنهم سيقبضون عليّ ماداموا يتصيدون بهذه الدقة واليقظة _و كثيراً ما لا تنجح مخادعتهم_ ويقتادونني الى حيث يريدون ولا أحد يعترف بك ويقتنع بنزاهتك وبراءتك وصدق مبرراتك.. أسرقُ النظرات الخاطفة الى الخارج وأتابع تحركاتهم وتنقلاتهم من هنا الى هناك دون أن الفتَ انتباه أي منهم، محاولا ألا أكون لحوحا أو قلقا حتى لا ينكشف أمري وأكون عرضة للإحتجاز.. أراهم يستوقفون الشباب ويفتشونهم بدقة ويتركون البعض ينصرف لحاله عندما تكون حالته سليمة، ومن لا يحمل هوية أو تعريف تصريح يبرر خروجه في هذا الوقت يقتادونه الى السيارة الواقفة هناك ويلقون به الى جوفها.. طال انتظاري وهم على حالهم هذا، لم يبرحوا المكان وكأنهم ينتظرونني أنا تحديدا، أو هذا ما سولتْ به نفسي المتوجسسة لي، ونال مني القلق وبلغ مبلغا، ولكن الى متى ىسأبقى بصالة المطار انتظر انفراج اللحظة التي كما يبدو لي أن انفراجها بعيدا، فقررت الخروج أمام أعينهم، اتجاهلهم وامضي قدماً لحالي والغي وجودهم البته ولا أنظر اليهم وكأنهم غير موجودين، ولكن ياترى هل هم أيضا كذلك؟ وضعتُ حقيبتي على

ظهري واندفعتُ وكأنني قد وصلت للتو ولا علم لي بشيء ولا علاقة لي بما يحدث على الاطلاق، متظاهراً اللامبالاة متصنعاً الغفلة ولكن في داخلي خائف وقلبي يرتجف من عواقب هذه العملية المرتجلة، وما إن تجاوزت بوابة الخروج وأنا أنظر الى الامام غير مبالٍ ولا عابيء بأحدٍ حتى وضع أحدهم يده على كتفي بخشونة قائلا بلهجة آمرةٌ وفيها تصّنع : – أوراقك ؟ إبرز أوراقك الثبوتية يا حبيبي. ثم هل أنت عسكري أم مدني ؟ أجبته أنا عسكري قادم من طرابلس ولم يكن معي تصريح بإجازة، وليس هناك ما يدعو لذلك على ما أعتقد ! أجابني هيا تقدم معي الى السيارة، وحاول أن يجذبني من زندي بعنف الا أنني خلصتُ ذراعي من قبضته بقوة وتملصتُ منه، فهب زميله ليدعمه ويتقابلان عليّ يحاولان الإطاحة بي والقبض عليّ ويضعان بعد ذلك الأغلال في معصمي، لكنني لازلتُ اقاومهما بقوة حتى أنهما لم يتمكنا مني، وبينما هما على هذه الحالة حتى جاء ثالث من زملائهم كان يتابع المشهد من بعيد ويبدو أنه أدرك أنهما لن يتمكنا مني، ولكنه بذلا من أن ينقض عليّ معهما أو يساعدهما في الإيقاع بي، نجده قد تصرف بأكثر لياقة ولباقة وصرخ في وجهيهما معا بكل خشونة وصلف موجها اليهما الأمر بتركي والتخلي عني بالإبتعاد، وإستمر يوبخهما ويعنفهما على فعلهما لي ذلك، متسائلا وهو يشير اليّ بيده، لماذا كل هذا العنف والجلافة مع هذا المسافر المسكين؟ وتأكد لي أنه رئيس هذا الفصيل وهو المسوؤل عن كل حركة

وسكنة، بعد أن طاعا أمره وإستجابا بكل سرعة لذلك، إذ تركاني واقفاً وتراجعا الى الخلف، إرتحت لتصرفه هذا وشعرت أن العدل والنظام في البلاد لايزال بخير، ها لقد جاء من يخلصني ويقتص لي منهما، ثم توجّه اليّ بالسؤال المعتاد هامساً في لين واضح .. من أية منطقة حضرتكم ؟ لمست في اسلوبه كياسة فأجبته من « يفرن»، ابتسم بكل عفوية وانبساط قائلاً : — يا سلام ! وأنا أيضا من نفس المدينة !؟ ما إسمك ومن أية عائلة ؟ ولكن تفضل معي أولاً الى المكتب بعد أن طرد الجنديين الذين كانا يحاولان إيقافي وإيتاقي، وأمرهما بمتابعة عملهما ومعاملة الناس معاملة حسنة، إصطحبني معه الى مكتبه لاستضافتي .. وعرض عليّ أنه سيقدم لي خدماته التي ستنال رضاي وإستحساني ما أمكنه ذلك، ما دمت من (يفرن) وظل يتحسن معي ويلاطفني الى أن دخلنا المكتب وسبقني الى كرسيه وراء المكتب وطلب مني الجلوس وهو يمد يده مشيرا الى الكرسيين الذين أمام طاولة مكتبه قائلا : — اولاً ماذا تشرب شاي أم قهوة ؟ فأجبته بالطبع قهوة، وأنا على هذه الحالة من التوتر، فقال لاتقلق ستتفرج عما قريب، وكان يقف بالمكتب شخصان آخران وما أن تقدمتُ من الكرسي وجلستُ ثم إستويتُ عليه تماما حتى صار ما صار، فبعد أن تبودلت إشارات خفية بالعيون بين الضابط والجنديين طالبا منهما الإستعداد للمهمةِ، حيت إنقلب بي الكرسي كالأرجوحة رأسا على عقب في لمح البصر والكرسي يدور رأسيا على محور أفقي، وإذا

برأسي يرتطم بارضية المكتب وقدماي طارتٌ الى أعلى تكاد تلامس المصباح الكهربائي المعلق في سقف المكتب، ووثب الشخصان الواقفان في أدب اليّ يربطان قدميّ وينزعان حذائي وينهالا على قدميّ ضرباً بعنف ودون هوادة.. الغريب في الأمر أنني انبرأت اضحك، إنتابتني نوبة من القهقهه الهستيريه، وكلما حاولتُ أن اتمالك نفسي واتوقف عن الضحك ما إستطعت، رغم أن الضرب كان مبّرحاً ومؤلما وبلا توقف لغرابة ما وقع لي وللمقلب الكبير الذي أعدني له هذا الماكر المجرّب، وعندما هالهم أمر الحالة توقفا مستغربين، إذ هذه هي المرة الأولى التي يشاهدون فيها شخص يعذب وبدلا من أن يبكي ويصرخ بأعلى صوته يرونه يضحك بشدة ويقهقه وكأن احدا يدغدغه بلا توقف حتى أنهم في البداية لم يصدقوا انفسهم وما يرونه، فأخذ كل واحد منهم ينظر الى الآخر في حيرة وقد أحسوا بالخيبة من عقم المحاولة، وفقدوا حماسهم للجلد الذي كانوا في السابق يتسابقون اليه ويستمتعون به، فقرّروا اقتيادي الى عربة السجن، وعندما خطونا الخطوة الأولى اتجه الضابط نحوي وقرّب وجهه من وجهي وسألني بتذاكي مبتسماً نفس الإبتسامة الأولى : — مارأيك في قهوتنا ؟ اجبته بكل استخفاف : — قهوة مضحكة !

10
(الرجل الشجرة)

أصبح مجرد وجودها معه في مكتب واحد يضمهما، يشيع دفئاً جميلاً في اعماقه، ويبعث فيه روحاً متجددة، مقبلة على العمل بفورة قوية لا تكل ولا تمل، مما حدا به الآن لأن يسارع في البحث عنها، بعد ان أحس بثقل إفتقادها هذا الصباح، لكنه تذكر مستدركاً انه قد لمحها بأم عينه تقف امام سجلات الحضور والإمضاء فيه .. إذن أين إختفت بهذه السرعة ؟. اشتدت لديه لهفة البحث عنها، بعد ان استبد به هذا الاحساس العفوي بغيابها، فانطلق مسرع الخطى في حماس عله يعثرعليها في احد الاقسام الأخرى، ويكشف لها عن أثر .. ازداد الحاحه لأنه لم يفلح في ملاقاتها أينما إتجه، فراودته فكرة ان يبحث عنها خارج المبنى الكبيرالذي يضم الأقسام والمكاتب، فهرع تقوده قدماه على غيرهدى ولا تركيزالى مكان يشبه الحديقة داخل

الفناء الذي عادة ما يكون خالياً في الأصباح، حيث الساعات الأولى للعمل، ودون تركيز كمن لا يتوقع وجود أي مخلوق، لمح فتاة تجلس تحت شجرة عملاقة ظليلة ربما غرست قبل إنشاءالمبنى، يتوقف بغتة مندهشاً ويخطو الى الوراء كيلا يثيرها او تنتبه لمجيئه الذي فيه مس بخصوصية الآخرين، كما ان فيه فضحاً لحقيقة قد صبر كثيراً على كتمانها، والإحتفاظ بها في قرارة نفسه، تظاهرالغفلة والعفوية متوارياً خلف حافة الحائط، فقد أدهشه حقاً وجودها الا متوقع وحيدة في هذا المكان، وأخذ يسترق النظر وقد استبدت به المفاجأة والفضول، انها الموظفة التي كان يرهق نفسه في البحث عنها منذ لحظات وكأن شيئاً ثميناً قد ضاع منه. تُقّصي نفسها في هذا المكان عن أعين الخلق وحتى لا يسيء أحدٌ الظن بوقفته المشبوهة هذه وتصرفه غيراللائق وهو يستند الى الحائط مخفياً نفسه عنها قرر العودة ومتابعتها من مكان آخر أكثرأمانٍ وسرية، فإلتجأ الى غرفة مهجورة قريبة منه واختلى فيها بنفسه متجاهلاً أمره، وقف بعد أن احكم إقفال بابها بجوارالنافذة الموصدة، ليمد بصره من خلال شقوقها، وللمرة الأخيرة تأكد انها هي بدمها ولحمها، تجلس وحيدة بإسترخاء تام، متجاهلة العالم بأسره، وقد استقلت كرسياً ومنضدة ابيضين من ذلك النوع الذي يستخدم في الحدائق المنزلية، واجمة غارقة في تفكيرها، تضع رجلاً على رجل، حيث يوجد أمامها كوبٌ من الشاي الساخن، يتطاير بخاره الخفيف، الى أن يتلاشى صاعداً في الهواء، تتلهى بارتشاف

جرعات منه، غيرعابئة بأحد. افتراضات واحتمالات عديدة أخذت تتقاطرعلى رأسه، فما الذي جاء بها الى هنا تاركة متناسية عملها الاساسي دون ان تضع إعتباراً لشيء، لابد ان في الأمر سراً غامضاً، وعليه من الآن فصاعداً تدبر إدراكه، فاي مبرر مقنع لهذا التصرف الغريب منها، لوجودها منفردة في هذا المكان المتطرف وكأنها تنتظر دنو موعد وما شابه ذلك، قد حددته لإحدى صويحباتها، وإن كان مستبعداً في هذا المكان الخلفي بالتحديد، وهنا وثبت الى ذهنه فكرة ضعيفة في البداية، كلون من الشك الإعتباطي، ما لبث أن ترسّخت، وأصبحت يقيناً غير قابل للجدل، وهي لماذا لا تكون هذه الصديقة صديقاً ذكراً، قد ضربت له موعداً هذاالصباح، تحت هذه الشجرة الخضراء الوارفة الظلال .. وجد نفسه قد عثر أخيراً على سبب مقبول لاقى استساغة لديه، فحياتها إذن تحفل بحب شاب ما، وقد يكون صبياً غراً ومراهقاً مثلها تماماً، لا يضع للأمور قيمة ولا وزناً، وها هي تنتظر قدومه بفارغ الصبر، وتتحرق شوقاً للقياه، فإلتجأت الى هذا المكان المجهول كي تختبيء معه عن أعين الفضوليين الذين لا تخفى عنهم خافية ويضيقون عادة على العشاق الجدد أمثالهما، وليحلو لها معه الحديث والهمس بكل إطمئنان، وهذا الكرسي المقابل لها قد أعدته لإستقباله لتجلسه عليه..أخيراً بعد ان أمسك بأول الخيوط وجد نفسه متحمساً أكثر لمعرفة المزيد فمن يكون هذا الحبيب الذي صبرت على إنتظاره كل هذا الوقت، وتحملت في سبيله

ما تجره عليها هذه الجلسة المريبة من متاعب وقلاقل .. أحس بنوع من المماراة والغيرة نحوه، أشبه ما تكون بالحسد، فقريباً ستراه قادماً نحوها ويضيء وجهها بالسعد والحبور، وتندفع تجاهه ويقابلها هذا العشيق بنفس الشعور مغتبطاً هو أيضاً بلقياها، وقضاء لحظات وردية حالمة بصحبتها، ويباشر على طول في مغازلتها وملاطفتها، وإمتداح حسنها الفتان الذي بهدله واشقاه كعادة العشاق الصغار الحديثي العهد بالحب، ويغترف من هذا الحسن الفائق الذي ينضح من كل عضو فيها .. اطرق هنيهة ربما يهتدي الى معرفة هذا المحب اللغز، ويتذكر وجوه الذكور الذين تخالطهم وتمازحهم، فلم يستقر رأيه على أحد بعينه، فأرجأ الأمرالى الأيام القادمة فهي وحدها الكفيلة بكشف النقاب عنه وتحديده، لكن حتماً سأتربص به الى أن أعرفه وأقف عل ىسرها بنفسي، مهما تكتمت عليه ونأت به عن أعين الآخرين طال الزمان أم قصر. في البدء كان ينظر مجانباً النافذة، لكن اخيراً ازداد تلهفه وإهتمامه بالأمر، وإستدار بكامل وجهه نحوها حتى تتسنى له الرؤية وتواتيه بوضوح، (اراك بوضوح أكثرعندما اطمئن الى اني أراك ولا تراني)، أخذ يتطلع بشغف، فالأمر اصبح لديه ليس سهلاً وعابراً يمكن التغاضي عنه، وعليه تداركه وايقافها عند حدها قبل فوات الأوان واستفحاله، فهو طيلة عمله بالشركة لم يحدث يوما ان تغيب أو ترك مكتبه بدون عذر مشروع يقبله القانون، أما فتاة صغيرة لا تضع للأمور أدنى اعتبار

تبقيه واقفاً مكرهاً كالحارس متراخياً عن تأدية واجبه، فهذا لا يرتضيه ولن يقبل به، وسيكون له معها شأن آخر فيما بعد، واصل تأمله حيث تضع ساقيها العاريين واحداً فوق الآخر في إهمال متعمد، وتستعرض تجليات جسدها بكل وضوح، وكأنها قبالة المرآة وحيدة في غرفة نومها، وتكرر الرشفات من كوب الشاي في كسل، فحانت منه نظرة طائشة نحو هاتين الساقين المكتنزتين، فتجمد مكانه مبهوراً، وأتلج صدره بهذا الفيض الأنثوي الذي ينبعث منهما، على ما يبدو أن هذا النهار لن يمر على خير، واخذ يتسلق بنظره النهم المتلهف متفحصاً من الكعب الى الساق متوقفاً عند ركبتيها الأبيضين كجمار النخيل الى أن تعترض بشكل صادم وتوقف خط سير نظراته حاشية فستانها اللعين، خفاقة تعلو وتهبط بفعل النسيم الخفيف الذي يهب، تعلقت عيناه وتشبثتا بحركة حواشي الفستان، لكن قماشه المعربد الماكر يرفض الإنصياع لهذه النسمات ومطاوعتها وكأنه يتآمرعليه هوالآخر، ويعمل ضده، متمسكاً بمكانه رافضاً التنحي ولوعن مسافة محدودة فوق الركبة كي تروي فضوله، لكن النسمات المتوالية تتكسرخائبة، وهو يفقد الصبر مع كل محاولة، ويتوسل ان يعين النسيم في مسعاه، إذ اكتشف هذا اليوم فيها كنزاً جمالياً من ذلك النوع الإنقضاضي المتنمر الذي تصعب مقاومته ودحره، فنسي كل واجباته وتخلى عن كل أشغاله وتفرغ كلية لمتابعة هذه المعركة الجميلة التي تدور رحاها الآن بكل ضراوة بين هبات النسيم الواهنة وعناد

حواشي الفستان الرافضة، ولم ينتصر فيها طرف على الآخر، تمنى لو تنزاح به الغرفة بكاملها وتدنو من الشجرة ولو قليلاً، ربما يمد يده ويمسد على البطتين المكتنزتين، فقد اهاجت غرائزه وحركت كوامن الرغبة البعيدة فيه، بشكل لا يعرفه من قبل، وأخذ يتخبط في هواجسه وأوهامه، أهي تلك الفتاة التي يعرفها منذ شهورعديدة تحوز كل هذه الأنوثة الفتاكة؟، قال مخاطباً نفسه: — تباً لي من غبي أرعن فيوم ان سلمتني رسالة تعيينها لم أهتم لمقدمها ولا حتى رفعت عيني الى وجهها متجاهلاً حضورها، ولم أكن اصدق انهم سيخصونني بموظفة تمتلك فعالية خارقة مثل السحر .. وعندما تخلف عشيقها المحتمل على ما يبدو لي عن الموعد، قامت من مكانها بتثاقل تتثنى ووقفت، متثائبة، وكأنها تطرد سأم الإنتظار الذي تراكم، وتبعدالاحباط والخذلان اللذين سببهما تأخره غيرالمتوقع عن الموعد، وبدت له أردافها الممتلئة المتكورة تترجرج، وخصرها الضامر، وصدرها النافر المتأهب يهتز ويتراقص ليزيدها سحراًعلى سحرٍ، فتساءل في قرارة نفسه : — هل هناك من أحد في هذه الدنيا له من الغباء والغشامة الى هذا الحد، يتواعد مع وردة بشرية تمتلك كل هذا الحسن والجمال ويتخلف أو حتى يتباطأ عن الحضور اليها قبل أوان الموعد؟ اقتربتْ من جذع الشجرة العملاقة وتهالكتْ عليه، بفعل الخيبة التي سببها عدم حضوره، وطوقته بذراعيها وهوت عليه بصدرها ورأسها معاً، وأسندتهما في حنو وكأنها تناجي الشجرة وتشتكيها الخيبة، أوتتوسل

اليها ان تشاركها ألم الخذلان الذي يعتصر قلبها، ظهرت أسنانها تبرق من بعيد ناصعة البياض كالاسنان اللبنية، وتأكد لديه أن ذلك الرأس الصغير ليس كما تصوره مملؤاً بالمكر والدهاء النسوي الذين الصقا بعقلية المرأة على مر العصور، أو محشو بالخرافات الفجة، لكنه روضة غناء من رياض الجنة ليس لها حدود.. ولكن لماذا تهدر هذه اللحظات الثمينة الشهية مع جذع شجرة لا تحس ولا تستمتع وتمنحها من قطافها اللذيذ بلا مقابل، وهنا تمنى لو أنه مكان الشجرة، لصيق بجسدها تماماً وتحتضنه برفق، محدثاً نفسه: — ما ضر لو اصبح الإنسان شجرة، كهذه الشجرة السعيدة الحظ، جاءها نصيبها الى حيث هي ضاربة بجذورها في الأرض، وتمنى على الله ان يحيله الى شجرة آمنة في هذه اللحظة تحتضنه وتضمه فتاة جميلة فاتته كفتاته هذه، وعندها سيريها ماذا وكيف يفعل الشجر بالجميلات، لاقى في هذه الفكرة إستحساناً، وإنصهر كلية في أمانيه وتخيلاته، يتضاعف شعورة ويمتلي رأسه قناعة بهذه الفكرة الطارئة التي لايعرف كيف سيطرت عليه، معجباً بذاكرته الفذة التي زينت له الحياة بهذه الطريقة السهلة، وبدا له أن ذلك ممكناً مادام يمتلك بين جنباته قلباً مفعماً بالأحاسيس النبيلة، وقدرة على التبدل والتحول، وقد يحدث هذا بسرعة، فلاغرابة في أن يتحول الإنسان الى شجرة نضرة، ذات جذع ناعم الملمس، تورق وتزهر في كل الفصول، ويضوع عطرها فواحاً في كل الأرجاء، ويتهافت الى ظلها الحسناوات، من كل

حذب وصوب، وليس في ذلك ما يعيب، فقط يطوّع نفسه ويهيئها كي يصبح شجرة، راق له المشهد الذي أمامه واستحسن الطريقة، فلحظة كهذه تساوي عشرات السنين العجاف التي ولت من عمره، وقد عاشها بلا معنى في قنوط تام، وقد تكون في متناوله ذات يوم قريب، وأي مكان سيجمعهما يتحول الى فردوس، وفارق العمر لن يكون حاجزاً عائقاً بينهما، فرحة أخذت تغمر كيانه، وهو ينساق بفكره تدريجياً وراء هذه الخاطرة، حتى إكتملت صورتها في خياله، فتوهم نفسه شجرة ومد ذراعيه في الهواءعالياً كفروع الأشجار، ونظرالى أصابعه فاذا بها أغصان بأوراق مخضوضرة يبللها الندى الصباحي، والشعر الذي ينبت على قفا يديه وذراعيه قد تبدل الى براعم ووريقات صغيرة طرية، واذا به في لمح البصر سامقاً عملاقاً بدل ذلك القزم الموبؤ الأصفر، وهي الآن تطوقه بذراعيها ضاغطة عليه وتضمه نحوها، وكأن الله قد استجاب لرجائه ولبى مطلبه، وتودع رأسها الى صدره، فيحس به دافئاً وشعرها يتطايرعلى وجهه منعشاً ناعماً كخيوط شمس الضحى في يومٍ ربيعي هادىء، سحب ذراعيه ليتحسس ويتلمس أماكن أخرى من مفاتن هذه الجوهرة الآدمية، لكن قبل ان يقدم على تنفيذ هذه الرغبة خلصت ذراعيها منه وكأنها قرأت أفكاره وما يخطط له، وفرت مبتعدة عنه خطوات لتحط أمامه وهي تغمز بجفنها في إشتهاء صارخ، وأصبح يراها نصف شفافة غير ثابتة في حركات استعراضية مهتزة وكأنها خرجت من رحم السراب، فليس له

بد بعد الآن من الإنقضاض عليها والإمساك بها عنوة ثم الشروع في تقبيلها واعتصار رحيقها، فلن تجدِ معها بعد الذي حدث غيرهذه الطريقة، وثب نحوها في شبق ووقاحة حتى يكاد أن يطبق عليها، لكنها في كل مرة تفلت من بين يديه ككرات الزئبق الصغيرة، او كمن يطارد ظله، يكرر محاولاته وهي تطيرمن زاوية الى أخرى بحركات فيها من الدعوة أكثر مما فيها من النفور، مما يزيد من إشتداد حالته، يستمر في ملاحقتها في شطط كحمار منعور فارغ الصبر حافي القدمين يقرصه جوع بهيمي لاذع، ويتصبب العرق من جسده بغزارة، وعندما أحس بالإعياء إلتجأ الى الحيلة والمخادعة كآخر وسيلة للتقرب منها والوصول اليها، وذلك بإيقافها ومهادنتها والإمتثال لمطالبها اي كانت هذه المطالب، لأن فرصة الإختلاء بها في حجرة متطرفة ومحكمة الإغلاق كهذه الحجرة قد لا تتكرر في وقت آخر، وهذا شبه مؤكد، فوقف متهالكاً بعد ان عجز في التعامل معها والتجأ الى الحيلة وأخذ يدعوها اليه صاغراً مستسلماً، ويرجوها الإصغاء والتفاهم بالحسنى، في محاولة عاجزة وأخيرة للنيل منها، وهنا هزت مسمعه قهقهة عالية ملعلعة، ثم توالت قهقهات أخرى متداخلة، يرددها صدى المكان، فوضع يديه على صدغيه وحول رأسه بتشنج في محاولة لإستعادة وعيه الغائب، وعندما استرد بعضاً من صوابه وفتح عينيه فلم يجد أمامه شيئاً مما كان يرى، إلا هو وحيداً واقفاً مغبر الجسد في هيأة مبهدلة كالشجرة الإصطناعية التي غطاها الغبار،

فتح باب الغرفة وخرج فوجد المبنى خالياً تماماً، وأن ساعات الدوام قد إنقضت، وكل موظفي الشركة قد غادروا مكاتبهم عائدين الى بيوتهم .. ومنذ ذلك اليوم ولايزال سماع تلك القهقهات الساخرة المتحدية يلاحقه كلما صادف فتاة جميلة في مواجهته أينما كان .

11
(الولد الركامي)

كان كلما توفر لديه شيء من الوقت، ياخذ طريقه اليها، انها المرأة التي لها الشأن الكبير في حياته، ويقوم بزياراته المتباعدة اليها بغية لقاء خاطف في الغالب، أحياناً يجدها على قيد الوعي ترزق وأحياناً يجدها ميتة فيقلّب عظامها بين يديه ويعود من حيث أتى، ومن المعتاد اذا ما تخلفَ طويلاً، تصيبه لحظة حضوره المتأخر بنظرة لوم وإحتجاج، يقرأها ويتعرفها جيداً، ويدرك أن أمره معها سيكون على غير ما يرام، رغم انه لا يستطيع الإبتعاد النهائي عنها. لقد تفقد نفسه جيداً وبحرص شديد قبل ان تتجاوز قدماه لحظة اللقاء التي جمعتهما، ليجدها قبالته وفي انتظاره وكأنها على علم مسبق بمجيئه هذه القيلولة. وعندما التقيا قالت اللحظة الراهنة اليهما معاً:

— أيها الميت بين الريعان والمقتبل، تولد طفلاً، وتعيش طفلاً، وطفلاً

تموت، أيها المائل ما بيني وبيني اطلق ترانيمك الأولى كي يسمعها الرعاة والمتسولون .. وهذا التخاطر المبهم سيأخذ مداه الجامد، لِيُنعِشَ حقولَ الوهمِ، ويفتت الطقوس السرمدية لهذه العلاقة، وتطول انفاسك كل ما من شأنه الا يكون. تقدمَ الولدُ كي يلودَ بالظل وهو يعصبُ رأسه بيديه خشية ان ينبت له قرنان وقال معاتباً: — أيها الدهر لماذا إقترفتني هكذا بكل هذا العُري؟. واخيراً وجد نفسه يصارع ما تمكن منه، انه الركام الذي يملأ الذاكرة الضيقة، وعصفتْ به الإفتراضات التي تنبثق تباعاً كجراء البكتيريا .. فقالت له : — ما من أمر يستطيع أن ....، هزّ رأسه متضايقاً بعنف وقد برزت عروقُ صدغيه من شدة الغضبِ مجدداً وتصاعدَ الألم منهما، وكأنما أدرك فشلاً قد لازم خطاه لزمن طويل.. فكرر باصرار : — ما من أمر ....، تنهد بعد أن تبدلتْ أسارير وجهه، وأردف : — يا خالقي كيف تجعل لمخلوقك جناحين من أنثى لا تطير، يحاول أن يسابق (ك) بهما؟. إن شيئاً من تلك الطفولة العذبة يلاحقني ويرفض مغادرتي، وشيئاً منك يضاهي هذا العالم.. ان رحلة الألم تبدأ بإبتسامة عفوية غالباً.. سألتْ : — هل قاربتْ ظُنونُك تحوراتها المُحققة ؟، أجابَ : — ليس بعد !.أصبحَ صعباً عليها رصدُ التغيراتِ التي أخذت تعلو وجْهَهُ بلا توقف، واضافتْ : — (أما آن للرقص المباح أن ينتهي)، وهنا تلاشت كل السوابق أمام إيماءة صغيرة مثل هذه ! وقال : — يددني قبل أن يبلغ القلبُ زباه، لأتخللَ مسامَ الريحِ واداهمُ أقاليمَ الوهمِ . قالتْ :

– حديثٌ يأتي بحديثٍ غيره، وأخذتْ تُحدثه عن ذلك الولد البدوي الذي أحبته بعمقِ التجربةِ، والذي كان يحكي لها بفخر عن فروسيته، عندما كان يمتطي صهوات الديناصورات المجنحة، ويسابق السّحبَ والرياحَ. ففي كلِ المراتِ السابقةِ كانتّ عيناها تنطفيءُ في وجههِ، لكن هذه المرة قالتّ له بكل تماسك : – كل شيءٍ يتلاشى، ولا يبقى للإنسانِ الا الحزنُ والذكرياتُ، وتأكدّ أن أنتَ أنا، والحلمُ شيءُ آخرٍ. انسحبتّ بتمهلٍ لتدخل مسامَ الريحِ(التي حكى عنها)، وقرر هو الآخر قفلَ ذاكرتَه عما سلف، منشدأ هذيانَ الوهم من جديد: – أنا سيد أوهامي .. أنا نبيّ الضوء والضحك..

12
(فاتن)

هذه مشاهدات كثيراً ما تكررتْ معي، ولازمتني، تحدث أمامي، تلفتُ انتباهي، لكنني لم اعرها الاهتمام اللازم الذي تستحق، والذي قد يمنحه لها غيري ممن يكترثون للأشياء الغريبة لو وقعت لهم وربما يهولونها وتتعدد رواياتها، ولم تكن تقع لي عندما أكون وحيداً فقط لتنتهز فرصة وحدتي وتنفرد بي وتفعل ما تشاء في حرية، بل حتى عندما أكون مدججاً برفاقي مدعوماً بأنستهم. فقد اعتاد الناس في البلدة على المجيء الى هذا المكان، لوجود هذه الأنقوعة الكبيرة التي تكونها مياه الأمطار كلما هطلتْ بغزارة، وتبقى لشهور عديدة تمد البلدة بالمياه، لأنها تتجمع على أرض صخرية واسعة نسميها (الرصيفة) وتعتبر سداً طبيعياً لتخزين المياه للواحة لا تجف مياه الرصيفة إلا عند اقتراب فصل الصيف. يأتونها لغرض غسيل

ملابسهم وأغطيتهم، وذلك لسهولة الوصول الى المياه واغترافها منها مباشرة، بخلاف استخراجها من أعماق الآبار بواسطة الدلاء التي تحتاج الى بذل جهد وتعب كبيرين، كما ان مياه الأمطار تنظّف الملابس بسرعة وسهولة، لما تحدثه من رغوة كثيفة وفاعلة مع الصابون بخلاف المياه الجوفية الغنية بالأملاح المعدنية، ربما خلوها من الأملاح كان السبب في ذلك، كما يسقي الرعاةُ مواشيهم ودوابهم من مائها، وتتحول المنطقة الى منتزه مريح يشرح الصدور، فيقبلون عليه للتنزه دون انقطاع قبل أن يجفَ ماؤها حاملين معهم مواعين الطبخ وعدة الشاى لقضاء يوماً كاملاً. كنت اتردد انا وأصدقائي على هذا المكان، والذين احدثهم باستمرار عن مشاهداتي التي تقع لي وبحضورهم (عن فتاة تلاحقني وتتحرش بي وربما تضيّق عليّ، طاعنة في السحر والأبهة، حتى انني شعرت بالتصاغر والدونية أمامها، ولم أقوَ في البداية على الرد عليها ومبادلتها الشعور الذي تظهره لي خشية ان أكون مخطئاً في حساباتي وظنوني، وانني لست المعني باهتمامها الزائد هذا، ففضلتُ التريث والانتظار على أمل ان تبدي لي الايام حقيقة ما يجري، وكنتُ على اعتقاد مني بأن أصدقائي يشاهدونها معي بالوضوح الذي أشاهدها به أنا تماماً، وانهم لم يبدوا رأياً أو تعليقاً بخصوصها أو يحركوا ساكناً تجاهها، احتراماً وتقديراً لي أنا، لأن الأمر لا يهمهم، على اعتبار انه يعنيني انا وحدي، وانا المختص به وبالتصرف حياله) لكنما عندما لم يتوقف حديثي عن

ذكر هذه الأشياء الغريبة امام أصحابي على مر الأيام حتى تدخل ذات مرة احدهم جاداً في قوله في شبه تضايق وملل من ما وصفه بثرثرتي الزائدة للفصل في الأمر قائلاً: — اطلب منك يا (يونس) توضيحاً لما كنتَ تقوله باهتمام طيلة الأيام الماضية وتكرره على مسامعنا من كلام غريب مشتت بلا أساس ولا وجود له، ونحن نتجاوز تصريحاتك المشتته، وتساءل بقيتهم في تضافر معه وتأييد له ليتحصلوا مني رأساً على تأكيد حاسم لما أدّعي، هل أنا صادق وجاد فيما أقول ام ان الأمر مجرد مزاح او تهريف لا اعني به شيئاً مهماً، وماهي الا أضغاث يقظة يهذي بها شخص حالم عندما داهمته نوبات انبساط وزهو غامرة يخف فيها عقله قليلاً، ويستخف بدوام الجدية والحزم، دون دراية بما تعني ولا وعي بما يقول، فأوضحتُ لهم ان تلك الحسناوات اللواتي أحدثهم عنهن، ويجلسن متجاورات هناك على مر الأيام القليلة الماضية، ما هن في الحقيقة الا واقع اعيشه وألمسه كلما أتيت الى هنا، ويبدون لي كعرائس البحر اللواتي أسمع عنهن، جالسات ويجففن ملابسهن على الجلهة الرملية المشمسة من (الرصيفة)، يتجاهلن كلية من لا أهمية له بالنسبة لهن، وكن يقابلنني بصحبة رفاقي ويحاولن المشاكسة بغرض لفت الانتباه اليهن، الا ان أي من أصحابي لم يتقبّل مني ما أقول ويصدق به، ولم يأتي على ذكر أي منهن لا من قريب ولا من بعيد، وكأنهن غير موجودات، أو هم لا يشاهدوهن مثلي، ولم ينلن لا إعجاب ولا استحسان أحد منهم، ادلل

لهم بما أوتيت من حجة سارداً لهم مواقفاً قد وقعت جلية بحضورهم وأمامهم واحداً واحداً عدة مرات، لأثبتّ لهم صحة أقوالي وأذكّرهم ببعض الوقائع التي حدثت لنا مجتمعين وليست لي وحدي، ان كانوا قد نسوها! الا انهم رفضوا مجدداً الاعتراف بها أو تذكرها، وتنكروا جميعاً في كلمة واحدة وبشكل قاطع لرؤيتها ولحدوثها، وتمادوا حتى انهم لما ضاقوا درعاً بعنادي كذبوني علانية ووصفوني باختلاق اشياء لم تقع ولم يشاهدوها معي كما أزعمُ، لكنني مع ذلك رفضتُ اخذَ ردودهم بمأخذ الجد واستبعدتُ أن يكونوا لم يشاهدوا ما شاهدتُ !، لأن نكرانهم لم يقنعني البته واصبح في يقيني انهم يريدون مغالطتي وتشكيكي في سلامة حواسي ليس الا، هم يستغربون مني هذا الاعتراف، وانا أستغرب منهم هذا النكران لما يحدث أمامي وأمامهم على السواء، أوضحت لهم أن واحدة منهن مميزة خلاف الأخريات هي اكثر حرصاً من الأخريات تكاد ان تعترض طريقي وتنتشلني من بينهم لعلها تهيبتّ وجودهم بجواري، وكانت تتنقل أثناء جلوسهن من مكان الى آخر حول رفيقاتها لتختار الموضع الذي تكون فيه اوضح ما يمكن لمشاهدتها، حتى لا تختفي عن مرآي بغرض إغوائي والايقاع بي، وهي في الحقيقة تتجاهل بقية رفاقي جميعاً وكأنهم غير موجودين أما اليقين الذي قطع شكوكي أنها كلما أتيت بحركة من الحركات تقلدني بتطبيقها تماماً مثلما قمت بها أنا، فاذا وضعت يدي على رأسي تضع يدها على رأسها كذلك وبنفس الكيفية، واذا وقفتُ تقف

واذا جلستُ تجلس وبسرعة تجاوب متناهية وكأنها تقرأ افكاري أو تقابلني كصورتي في مرآةٍ أمامي. لقد ازداد رفاقي امعاناً في الضحك والسخرية من مزاعمي الغريبة هذه، التي لا اتورع من ذكرها ولا هم استساغوها على الاطلاق حتي الآن، وانفجر أحدهم في وجهي صارخاً بعد أن نفذ صبره على ما يبدو من اختلاقاتي : — ماذا تقول يا هذا؟ عن أي واحدة تحكي، لا وجود لشيء مما تقول، أنت واهم او تعيش بوادر جنون! وعند سماعي لهذا التأكيد الجارح منه وكأنه يوبخني تساءلتُ مع نفسي مصدوماً : — هل عيني ترى مالا تراه أعينُ الآخرين، وانها تفردتْ بكشف المستور خلاف أعين رفاقي؟ أم ماذا يحدث لي بالضبط؟ عليّ ان اعرفَ السرَ في أسرع وقت واضع حداً لهذه المهزلة التي أبت ان تنتهي، ساورني الشك في نفسي ووضعني في موضع تناقض معها.. ذات مرة اشرتُ عليهم بصف من الصبايا البالغات الجمال بقدودهن المياسة، وهن يتمخطرن في مشيتهن باتجاه الغدير، والشيء الذي تأكدتُ منه انهن ليس من بنات بلدتنا ولم يسبق لي ان رأيتُ أية واحدة منهن في مكان آخر، ثم من أين لبلدتنا ببنات بهذا الجمال الملائكي الصارخ؟ فاستنكر مني الصّحاب امكانية رؤيتهن، على افتراض منهم بأنني أدّعي التهابل، وعادوا ليكذبوني مرة اخرى ويتضاحكون مما أدّعي مثل أي ملبوس(لا أعرف اين وقعتْ عينها أول مرة عليّ، وكيف كنتُ أبدو لها ساعتذاك، وماهي الأشياء التي أعجبتها فيّ حتى تخلتْ عن قومها واختارتْ الاقتراب

وربما الاقتران بأنسي مثلي، مخلوق من طين كريم وهي المخلوقة من نار، فهل أنا جذّاب الى الحد الذي يلفتُ انتباه جنيّة وأكثر من إلفاتِها؟ ربما!)، في البداية اعتبرتُ ذلك مجردَ دعابة منهم كي يتلهوا بي ويتخذون مني موضع سخرية، مثلما يفعلون مع كل واحد منهم في العادة، عندما يشعرون بالضيق ويحتاجون للتسلية، أو يلمسون منه الارتباك والتلبك في تصرفاته، ويتسلون برفضي القاطع لما أقول حتى يدفعونني الى التمادي اكثر والغلو في ادعاءاتي والحصول مني على المزيد من النوادر واللطائف للاستفادة منها في التفكّه مني وقت الحاجة مستقبلاً، وأحياناً عندما أكون في وضع أقوى، أنا الذي اتهجم عليهم وأعتبرهم مجردَ عميانٍ، والا فكيف لا يتمكنون من الرؤية على بعد هذه المسافة القصيرة. كنت في البداية اعتبر موقفهم المعاند هذا مجرد مزحة للتسلية مني فقط، لن تطول اكثر من يومين ولا يستطيعون بعدها الثبات على موقفهم المازح هذا، لكن الآن بعد فوات الأجل الذي حددته في ذاكرتي، كنهاية لتلاعبهم لم يعد في الأمر هزل، فلم يتراجعوا عن رفضهم، وما لمسته في تأكيداتهم وإصرارهم على موقفهم المخالف لموقفي ومن الجدية التي بدت على تعابير وجوههم وتحولتّ الى تصديق، دفعني الى الارتياب في الأمر، والتماس العذر لهم وربما ان ما أراه انا لا يرونه هم حقاً وحقيقة، وقد أكون انا المخطيء وليسوا هم ولما لا؟، ولكي اتأكد من المسألة بنفسي وأقف على الحقيقة بأم عيني وعقلي قررتُ الذهابَ الى عين المكان

(الرصيفة) بمفردي ودون علم أحد، وقد اخترتُ وقت الظهيرة، حيث تهدأ الأرجل ويقل عدد الزوار نسبياً، وخاصة الشباب من هم في مثل عمري.. وجدت نفس الصبايا يرفّهن عن أنفسهن بالتحدث الى بعضهن البعض في فرصة اللقاء النادرة هذه، ويستمتعن بلحظة الحرية التي انتهزنها في غياب الجميع، ورأيتُ ماكنتُ أرى في السابق وكأنهن يتوقعن قدومي وجئن ينتظرن وصولي لاستقبالي في شوق، لكن ما دمن يظهرن لي وحدي بشكل متكرر وملفت ولا يراهن أحدٌ سواي ففي الأمر تخصيص ونية مبيته على شيء ما، ومن المؤكد مادامت لهن الرغبة في هذا الظهور البيّن لي انا فقط بغية هدف مجهول وانا دون غيري المستهدف به، وليس الأمر عشوائي غير متعمد، ها أنا الآن قريب من الفخ، فارتعدَ بدني وهالني ما شاهدتُ واعتراني خوفٌ مفاجيء، هذه المرةُ ليست كسابقاتها.. اشارتْ عليّ احداهن بالاقتراب أكثر دون تردد وهي التي كانت تهتم بوجودي وتخصني بنظراتِ الإعجاب الخفيّة وبابتسامتها الإيمائية، خلاف رفيقاتها الأخريات اللواتي لا تعيرني أي منهن باهتمام وكأن الأمر لا يعنيهن، يتجاهلنني ويغضضن من أبصارهن عني، وربما جئن كمرافقات لصديقتهن ويشجعنها على المضي في تنفيذ خطتها لتحقيق هدفها لغوايتي والإيقاع بي في حبائلها، وبينما انا أرى هذه المناظر بوضوح تام شعرت بأنني استمتع بها وحدي وان الله قد اختصني بها دون غيري وربما فيها خيري وسؤددي. ما إن لمحتني حتى لملمتْ

ملابسها وغطت ساقيها العاريين اللتين كانت تعرّضهما لأشعة الشمس اللذيذة أو تستعرض بهما لست أدري، (تمنيت الاختباء وراء صخرة قبل أن تراني واتلصصَ عليها من مكاني بتأنٍ مستمتعاً بالجمال الجني الخارق، لكنني تسرعت هذه المرة وحرمت نفسي من متعة مجانبة، الجنيات يبالغن في الغواية والغنج والدلال، ويتجاوزن حدود الطبيعة الأنثوية المألوفة لدى البشر، وتقدمتْ نحوي بثقة وافرة ذات الفتاة التي على بالي، وأرى انها تخصني بمتابعاتها المستمرة، وبعد ان تأكد لي ذلك، فررت هارباً من أمامها مسرعاً وكأني اطير دون أن ألتفت اليها في مشهد لا يليق بمعشوق امام عاشقته، ليس خوفاً منها هذه المرة ولكن بسبب انبهاري بها الذي لا يحتمل وانسحاق شخصيتي أمام هول المفاجأة، اشارتْ علي بإلحاح في لهجة توسل وهي تدعوني أن اتوقف للتفاهم وتبادل المشورة، بعد أن هالها ما صدر مني بلا توقّع، والذي قد تكون اعتبرته ضعف شخصية، وكان صدى صوتها يتردد في ارجاء الوادي الخالي وهي ترجوني التوقف والاستماع فقط لما ستقول، لكن هيهات، من يأتيني بالشجاعة الكافية والجرأة حتى يجمعني لقاء مغلق بفتاة من الجن في خلوة كهذا الخلاء الموحش، ماذا أقول لو وجدني أحد أفراد أسرتها متلبسا بالجرم، أتحدث في تحدي مع فتاتهم وأي فتاة، إنها على درجة كبيرة من الحسن والجمال الأخّاذ، قامة فارعة وقدٌّ لا يوصف، وربما منهم من ينوي الزواج منها، ما أشقاك أيها الأنسي تقاد الى الجنة

بسلاسل، وقد أبدتْ تذمرها من هذا الصد والرد، ولسان حالها يقول : — مهما فررت فأنت تطير داخل قفصي، ان ابتعدت فأنت قريب وان اقتربت فأنت قريب، لا يهم ما تفعل الآن فلا أخشى عليك من الضياع، وسألاحقك حتى الحب. الا أنها آثرت التريث والصبر عليه الى فرص أخرى قادمة تكون أنسب، فسيقع عاجلاً أم آجلاً، وهي على يقين راسخ من أن الذكور يسهل الايقاع بهم وبسرعة، عكس الإناث اللواتي هن حذرات ويصعب الايقاع بهن بل مهمتهن غواية الذكور وربما الاستبداد بقلوبهم. احتفظتُ بهذا الحدث لنفسي ولم أبحْ به لأحد، بقيتُ اقلب الموقف في رأسي باستمرار، جنيّة تراودني بإصرار عن قلبها الذي يبدو أنه لم يتعرف على الحب بعد ولم يتيّتم به، وأنا حبُها الأولُ، ولا أفهم كيف يحدث معي هذا دون غيري من بقية الفتية الذين يرافقونني، وهم أيضاً في مثل سني ومن بينهم الأكثر وسامة مني؟ ثم لماذا اختارتني انا تحديداً ؟ أفي الأمر سر؟ .. ام هل انا لا أشبههم وأختلف عنهم في شيء ما زاد من رغبتها، لا أعرفه عن نفسي؟ قد يكون أحد أجدادي سليل جان وانا الآن احمل جيناتهم، والذي قد شدها نحوي وجعلها تنجذب بهذه الطريقة التي فيها من المغامرة والتصميم أكثر مما فيها من الحياء؟ ومن المتعارف عليه لدى الجميع ان الجنيه اذا ما أحبت أنسياً ووقعت في غرامه لن تتراجع عنه حتى تقنعه بحبها على طول المدى وتدفعه الى ان يتعلق بها مثلما تعلقت به.. قررتُ ان أتركَ هذا المكان الى الأبد وأن لا أعود

اليه ثانية مهما كانت الدواعي، كم من مرة يعترض طريقي بعض فتية الجان بعد ان اكتشفوا أمرَ قصة حب جنية من نار لأنسي من طين أو ربما هم شكّوا ﴿ الأمر مجرد شك، وشاءوا مضايقتي بغية ابعادي عنها وارغامي على رفض اقتراحها بالاقتران بي، فهم غيورون الى ابعد حد، ويرون ﴿ معشر الإنس أقل شأناً ومرتبة منهم لذلك لا يرتضونه زوجاً لبناتهم . ندم أشد الندم على تصرفه الأرعن هذا ولأنه لم يستجبْ لندائها اللحوح وهي تطلب منه متوسلة التوقفَ والانتظار لمجرد الاستماع لما ستقوله، فربما ستجود عليه بشيء غير متوقع، أو تعرض عليه خدماتها المستعصية مجاناً وقد تدله على مكان ذخيرة أو كنز طائل دفين منذ عهود غابرة، عاش وهو يحلم به طيلة ما مضى من عمره، وقد ودّته به دون غيره، وكما هو معلوم فإن المنطقة هنا غنية بهذه الكنوز، عندما كان يعمّرها الإنسان منذ القدم، وأن جميع كنوز الأرض وذخائرها المخبأة هي تحت سيطرة وحراسة الجان ومعرفتهم، وعن طريقهم أو طريق الصدف يصل الإنسان الى هذه الكنوز، وستساعده هذه الجنية ﴿ البحث عنها والعثور عليها، ويصبح غنياً بين يوم وليلة دون جهد ولا تعب، وسيستمتع بالمال الوفير وينفق بلا حدود، رأى ﴿ هذا الاقتراح الخاطر شيئاً من الممكن، واستساغ هذا التكهن المريح الذي غاب عنه ﴿ اللحظة المناسبة، ولماذا لا يكون هذا صحيحاً وليس مجرد وساوس نهمة كاذبة؟ ولكي لا يضيّع الفرصَ مرتين قررَ أن يعودَ ثانية نادماً طائعاً للبحث عنها ﴿

ذات المكان الـذي رآهـا فيه أول مـرة، ومحاولة الالتقاء بها اذا ما وجدها فيه، ومقابلتها للتعبير عن خجله والاعتذار عما بدر منه في المرة السابقة من سؤ ظن، وتصرّفَ على ضوئه هذا التصرف الشائن كالأرعن، ثم التحدث اليها بروية واستمالة والاستماع لما ستقوله له بهدؤ، وسيتبادل معها المصالح باتفاق وثيق يقبل به الطرفان هي ستُرضي قلبها وتُطَمئِّن نفسها وهو سيُشبع نهمه وينال الامـوال المتعطش اليها بلا حدود، كلانا سينال ما يحتاجه لدى الآخر، وعندما وجدها وكان لوحده هذه المرة أيضاً ازداد يقينه بما توقع وتقدمتْ منه فور ان رأته فرحة مستبشرة، ظن أنها ستلومه وتحْتَجُ على ما أقدم عليه من صدٍ وردٍ في المرةِ السابقة وربما لأنها غاضبة منه لن تلتفت الية اطلاقاً، لكنها عَفتْ عنه وتسامحتْ معه الى أبعد الحدود وكأن شيئاً لم يكنْ، ولما اقتربتْ منه وأصبحتْ وجهاً لوجه معه حدّجته بنظرةٍ مملوّةٍ جموح، بها نداء صارخ موجه اليه في الصميم يحمل مودة ولطفاً، عكس تكهناته المضادة رأساً على عقب، وهاله جمالها النّاري الطاغي وقوامها الرشيق، وهل هذا الحسن (النّاري) الباذخ الذي يسهّر الحالمين هو حقيقي؟ أم كل ما في الأمر هو انخداع العين وراء اشكال غير موجودة، اكتملتْ أوصافُ الحسن فيها، ووصف حاله : — (و كلما نظرتُ الى جزء من جسمها أبهرني وأنساني جمالَ الجزء الـذي قبله وهكذا الى أن تفقدتها كاملة ولم أعثر على ما يعيب حسنها، وقد منحتُها اسماً رناناً اخترته بعناية واستحقاق ليكون

منسجماً مع جمالها وحسنها ويفيها حقها كاملاً دون نقصان، هذا الاسم هو : (فاتن). قد تكون إحدى الملكات الجميلات ذوات المجد الغابر اللواتي تتحدث عنهن الأساطير القديمة، لا نعرف بالضبط ماهي الأشياء التي تغوي الجنيات، وتجعل منهن عشيقات متيمات الى هذه الدرجة من الثبات على المبدأ، أصبح من المؤكد أنها مصممة على الـزواج منه وان طال الزمن ومهما تهرّبَ منها، فنسي الكنزَ والغنى وتنازل عن أطماعه الأولى وأصبحت امرا تافهاً لا قيمة له لأنه وجد ما هو أهم وأفضل بكثير، وتمنى ان تقبل به زوجاً حليلاً ولا ترتد عن محاولاتها وهذا فقط يكفيه، إلا أنه لم يعرف كيف يفاتحها في الموضوع، وكيف تتم عملية الـزواج، إنما هل سيقيم حفلَ زفاف فخم يليق ببهائها مثلما كان يحلم به قبل ان يتعرف على هذه الجنية، أم ان الأمر سيتم تحت ظروف اخرى مختلفة قد تكون سرية. ومن المعروف عن الجنية أنها لا تقبل الزواج الا بمن تحب، من يكون هذا المحبوب، فالذي لا تحبه لا تتزوج منه مهما كان غنياً أو وسيماً، لها معاييرها الغامضة التي لا يعرفها أحد الا الجنية ذاتها، والا لأصبح الجميع متزوجين من جنيات وكلهم أغنياء، وهو يعرف جيداً انه سيعيش مع زوجة غريبة، بعيداً عن أهله ودويه ولو بشكل متناوب، لأنها ليستْ من جنسه ولا معشره وتختلفُ عنّا كثيراً وتعرف هي جيداً ان واجباتها مع البشر غير واجباتها اذا ما تزوجت من جنيّ مثلها، انتظرتْ منه أن يقول شيئاً، حتى إنها أخذت تحرك شفتيها في صمتٍ

أو هي ترفّ لا إرادياً في إيماءةٍ منها له : أنْ انطقْ ولو بكلمة واحدة. لكنها لم تُطِقْ صبراً فانفجرتْ في وجهه: – أنطق بكلمة واحدة لماذا هذا الصمت المطبق؟ انها أنثى تنتمي الى الأقوام الخفية التي تعيش من حولنا وكأنها أحياناً معنا ويبدأ في وضع ترتيبات اخرى مختلفة عنّا وعن استعداداتنا، وبغية الالتقاء بها والتفاهم معها بعيداً عن معشر الأنس، ولتسوية وضعه مع (فاتن) للاستفادة منها التجأ للبقاء والعيش الى جوارها بعيداً عن أعين الناس في الأمكنة المهجورة وخاصة الخرائب القديمة الآمنة التي لم تطأها قدم بشر منذ سنين طويلة خلتّ، ولا أحد يحتمل العيش فيها، بعد ان تركها أجدادنا وبقيت من بعدهم مأوى للجان، يتطاولون في ربوعها دون تعرّض للمضايقة من أحد، اللهم الا من بعض هواة مشاهدة الآثار القديمة والشغوفين بالتقاط الصور الفوتوغرافية. قل اختلاطه بالناس حتى أصدقائه القدامى هجرهم وطالتْ فتراتُ اختفائه وتباعدتْ عن بعض، حتى كاد ان ينساه الناس، فعرف الجميع من هذا أنه قد تزوج من الجنية التي كان يحكي عنها في الماضي وتظهر له وحده من حين لآخر، وتراوده عن قلبها، فقد احتكرته لنفسها فقط، وربما هي من فرضت عليه العزلة، ولكي تنال رضاه سخّرتْ كافة قدراتها الخارقة والخفية لخدمته، وتقديم العون له لقضاء حوائجه المستعصية، وأصبح يهابه الجميع ويتحاشون الاصطدام به او مواجهته خشية محاماتها الصارمة له، لكن لا أحد يعرف تحديداً هل أصبح هو طوع

أمرها أم هي التي أصبحت طوع أمره، يأمرها فتنفذ وتأمره فيطيع، في مرات عديدة يصدر أوامره أو نواهيه الى أطفال غيبيين غير مرئيين ويكلفهم بإنجاز عمل ما، أو يطلب منهم التزام الهدؤ والسكينة حتى يستريح ويتمكن من أخذ غفوة أثناء القيلولة، فأدرك أصحابه انه قد صار أباً أيضاً ولديه أولاد من الجنية، وكان دائماً يفاخر أمام أصحابه القدامى بهم وبصنائعهم. ينقطع ويغيب لمدة شهر أو شهرين متتاليين متنقلاً بين الأودية وجبال المنطقة حيت تنتشر الكهوف والخرائب الأثرية القديمة من أيام الرومان، ثم يعود الى بيت اسرته الأنسية لكنه لا يمكث به طويلاً اذ سرعان ما يعود من جديد الى ترحاله المستمر واختفائه شبه الدائم، أمسى يتحدث الى نفسه كثيراً ويصل الى حد الجدال، وافتعال تلاسن مع كائنات غير مرئية تقف قبالته وتساجله باستمرار، مما يدل على ان مهامه قد كثرت وتعقدت وعظم شأنها، ومن النادر جداً ان يشارك بقية الناس أحاديثهم أو مشاوراتهم ولا يبدى آراء من طرفه مطلقاً، رغم أنه يكون جالساً بينهم وكأنه سفير الأنس لدى الجان، ولا نعرف تحديداً كيف تكون علاقاته بصهره وبقية أنسبائه من معشر الجان هل هي على ما يرام أم أنهم يرفضونه وينبذونه كأنسي غريب ارتبط بابنتهم وصادرها من بينهم ؟. تمر الاشهر وهو على هذه الحالة الغريبة ويعود بعدها الى سابق طبيعته، الا انهم لا يستطيعون ذكر سيرة تلك الأيام له ولا تذكيره بها، عندما يغيب بين الأودية وكهوف الجبال، يشكك أخرون

في عزلته ويظنون انه يبحث عن الكنوز المخبأة في الصحراء ليجمعها، وأن بعضهم أصبح على ثقة تامة من انه اكتشف العديد منها وتم له استخراجها من مكامنها في باطن الأرض بمعونة زوجته الجنية وليس غيرها، وأمست هذه الكنوز بحوزته الآن ومكنوزة لديه ولا يعرف مكانها أحد غيره، وانه قد ودّع الفقر الى الأبد، وأصبح من الأكابر الذين يشار اليهم بالبنان في البلدة، من هنا تطلّع بعضهم الى الاستفادة من صداقته القديمة له وتقربوا منه أكثر لبعثها من جديد بغية التودد اليه وليطلبوا منه ان يتوسط لهم لدى عائلة زوجته ان كانت لها أخوات أخريات ليتقدموا لخطبتهن عن طريقه، ويتزوجوا من جنيات مثله ويصبحوا عدلاء ونسباء له، مادامت الجنيات بهذه الاهمية والايثار، لا يهم كثيراً كيف تكون جميلة أم قبيحة أو متوسطة الجمال، المهم ان تنقّب معه في أرجاء الصحراء عن مكامن الكنوز السرية التي لا يعرفها الا معشر الجان ويهتدون اليها بسرعة، وتبْذلُ قصارى ما في جهدها للوصول اليها، ويا سعد من تتحقق له هذه الأمنية. في بداية اقترانه بفاتن كان يحدّث خلانه المقربين منه، وبالأخص اولئك الفتية الذين كانوا يرافقونه في بداية تنزهاته أيام كانت تعترض سبيله وتعرض نفسها بسخاء عليه، ويفضي اليهم ببعض نُدف من الأسرار ويصرّح بالقليل من التسريبات الشحيحة تحت ملاحقتهم له والحاحهم عليه، فيستمعون له في شغف مشدوهين فاغري الأفواه لا يتركون كلمة تضيع هدراً، الى ان أصبح كل واحد منهم يتمنى حقيقة

لو يقترن بجنية مثله في أسرع وقت ممكن، لكي تعينه على اكتشاف الكنوز المخبأة بالدرجة الأولى، وللطاعة العمياء التي تبديها لزوجها والاحترام الفائق إضافة الى العفة والطيبة، بعد أن أصبح معروفاً أن من طبعهن الوفاء والتمسك بقيم العلاقة الزوجية المتكافئة وتقديسها الى آخر العمر، ويجب أخذ الحذر من الخيانة أثناء هذه العلاقة فهي مرفوضة بتاتاً. وبينما يحدثُ أصحابه بشكل مقتضب عن حياته ساورته هذه الخاطرة : — لو أن نظرهم مكشوفٌ مثل نظري، وظهرتّ لهم (فاتن) وتمكنوا من رؤية حسنها مثلما أراها انا الآن لحسدوني ونافسوني عليها وحاولوا إغواءَها بشتى الطرق بقصد التفريق بيننا وافتكاكها مني.. واكتشفَ في آخر الأمر انه قد وقع فعلاً دون ان يدري في قبضة جنيتين وليست جنية واحدة، الأولى أحبته، والأخرى فتنته عن طريق الأولى وأحبها، وبقيت الجنيتان يتقاذفانه ككرة، ويتبادلانه فيما بينهما

13
(اِمَ العجلة)

بينما المطرُالمفاجيء ينهمرفي الخـارج بشدة خطرتْ لي فكرة تمنيتُ لو تتحقق، إذ لو لم تتوقف هذه الشآبيب القوية عن الهطول، ويااليتها لن تتوقف، بل تستمر وتزداد عنفاً وشدة حتى الصباح، لتحول دون خروج هذه الضيفة (المهرة) التي تقف بجوار النافذة الآن وتتابع المطر وهـو ينقر الـزجـاج، وقـد أتـي بها حظي السعيد هـذه الليلة الشاتية، هذا الحظ الذي من النادر أن يحالفني ويقف الى جانبي، انها زميلتي في الكلية التي ادرس بها وقد حكيتُ لها هذا الصباح في معرض حديث أثناء لقاء قصير جمعني بها بكفتيريا الكلية عن موطني ليبيا وما به من صحارى شاسعة ورمال ناعمة وغابات النخيل التي تمتد عراجينها بالرطب الجني، رويتُ لها قصة خالتي (غَرّسَه) التي بقيت على قيد الحياة لمدة اسبوع دون ماء، وهي تكابد الجوع

والعطش، عندما تاهت بين القريتين (الشرقية والغربية)، وشاءت ضيفتي هذه الليلة ان اضيف لها المزيد من الحكايا – التي وجدت فيها طرافة – وكانت تجهلها عن هذا البلد الساحر وغير المعروف على حقيقته لدى العالم، لتغذي بها ذاكرتها النهمة التي لاتعرف الا القليل عن عموم افريقيا، وما يبدو لي انها فُتنت به، الى حد أنها اتصلت بي بعد ان افترقنا وغادرنا الكلية، تستأذنني القيام بزيارتي هذا المساء في شقتي الصغيرة على أطراف المدينة، كي اروي لها في هدؤ وتروّي المزيد من الحكايا عن هذا البلد المجهول عن الآخرين، وافقتُ على طلبها بكل سرور واعتبرتُ ذلك نصراً أحققه لبلدي، معتبراً هذا هو الدور الحقيقي للسفراء وليس التطاول في البنيان وتبادل الزيارات مع الوجهاء والنافذين، وانه من دواعي افتخاري بها وإعتزازي بأهلي الذين اصبحوا محط اهتمام نساء العالم، وايضاً بارك الله في بلد وحكاياته التي جاءتني بهذه التحفة الآدمية مرغمة الى بين يديّ، وتستجديني قضاء ساعات برفقتي. لقد وصلتْ بالسلامة على العنوان الذي أعطيته لها، وهي الآن واقفة على النافذة وتشاهد ساهمة المطر غير المتوقع الذي يحتجزها عندي كالرهينة ويغسل الشجر والمباني ويكنس الشوارع، وكأني بها لأول مرة تلاحظ هذه العملية، وتتفرس في وجهي من حين لآخر وتتريص بي بعينين نهمتين تسرقان الضؤ وترفعان النفير وتحملان وعداً صريحاً، وكأنها تطلب بالحاح شيئاً تستحي من البوح به، او في عيونها سؤال يقول :

– هيا ماذا تنتظر انهض ونبدأ بالرقص كمقبلٍ تقليدي لليلة شهية واعدة؟ أو هكذا شُبّهَ لي بان لها أطماع في هذا البدوي الأسمر الآسر المحتار الذي لا يعرف كيف يبدأ بتناول جميع عسل العالم موضوع في ملعقة واحدة، وربما ترى فيه هي أيضاً قنيصها الثمين لهذه الليلة، والذي تمنّى نفسها بأن ترى منه العجب العجابا. ولكن لو لم تكن لها نية مختلفة، لماذا لا تؤجل أمر الحديث الى أن نلتقي مجدداً غداً في الكلية مثلما التقينا اليوم؟ هي اذن لم تأتِ من أجل التزود بالمزيد من المعارف عن ليبيا والصحراء، بل جاءت لغرض آخر لا علاقة له بالشأن، وهو غير خافٍ عليّ، مادامت قد فضلت اللقاء في شقتي. لتغمرَ السيولُ المكانَ كله وتحفر أخاديداً عميقة في الأرض كي يمسى من المستحيل عليها مغادرة غرفتي هذه، وليس لديها مكان آخر يمكن أن تلتجيء اليه في هذه الليلة الشاتية، وليغمر الطوفان الكرة الأرضية كاملة، المهم أن يترك لنا غرفتنا هذه طافية، وانا – حسبما اعرف – الشخص الوحيد المرشح لإستضافتها في غرفتي هذه الليلة، ربما في مكان آخر عاشق يتضور وجعاً ويعتصر قلبه الشوق واللهفة الى معشوقته ويتمنى لهذا الليل ان ينجلي، لكنني انا بالعكس منه اتمنى لهذه الليلة ان تطول وتطول أكثر. بدأ القلق يتطرق اليها بوضوح لكني لا اعرف لماذا هي قلقة بالضبط، هل هي قلقة مني لأنني لم اسعفها في الوقت الملائم بعد ان استغاثت بي، أم حقيقة هي قلقة من تأخرها عن موعد عودتها الى بيتها، لأتأكد من نواياك تجاهي فقط وسوف

اقوم بالواجب، فيما بعد كيفما تبتغين، الا انني تجاسرت وقلت لها :ـ يمكنك المبيت هنا نحن زملاء وربما نصبح أصدقاء بالمعنى، ثم لِم العجلة الليل لايزال في أوله، وأنا غالباً لا أنام طيلة الليل حتى عندما أكون وحيداً، فما بالك في هذه الليلة وأنت تؤانسينني وتضيئين غرفتي الصغيرة، ثم ايضاً الى أين ستذهبين في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لا يصح هذا على الإطلاق، ولا تسمح لي نفسي الأبية ولا شهامتي بان أتركك تروحين لوحدك وسط هذه المخاطرالمحدقة من كل صوب، انتِ عزيزةٌ عليّ وحياتك تهمني كثيراً وربما أعترضُ طريقك بما أوتيتُ من قوة إذا ما حاولتِ المجازفة والخروجَ وأحُولُ دون حدوث ذلك، وهذا جزء بسيط من واجبي تجاهك كضيفة أولاً وكزميلة ثانياً، وهذا أيضاً من صميم سلوك وكرم اهل ليبيا التي أحّبَبتِها وتعلقت بأهلها بمجرد سماع حكايتين بسيطتين عنهم، إبتسمتْ في صمت وهزتْ رأسها بالإيجاب، ثم قالتْ أجبني بصدق ووضوح : — هل الليل لايزال في أوله، أم في آخره ؟ الآن تنبهتُ الى زلة اللسان التي وقعتُ فيها في غمرة إرتباكي، ولكن على مايبدو انها اطمأنتْ لكلماتي الأخيرة وجلستْ وهي تبتسم على طرف السرير بقربي بدلاً من الكرسي البعيد عني الى حد ما، والذي كانت جالسة عليه قبل ان تقف مما أحسسني — طالما دخلتْ الى الحلبة — بأنها لا تمانع في قضاء ليلة ممتعة معي وتحديداً في حضني، وملأني شعور بالحماس لأحقق لها ما تمنتْ، هل تعرف حقيقة ما يعتمل في داخلي

وأنوي القيام به، وتتجاهله؟، أم انها تنظر اليَّ كانسان لا يعرف من أساليب التعامل الحضارية شيئاً، ولا يفهم هذه الإيماءات والإيحاءات النسوية المكثفة التي عادة لا تكون مباشرة وواضحة؟، يمنعني الخجل وأنا أحاول ان أخفي حقيقة نواياي تجاهها وأتصرف وكأنني لا أفكر في شيء آخر على الإطلاق، غير ماينطق به لساني، ووجدت أن اللعبة من غير تتويج ليست مسلية البته، وأن التخلي عن المحاولة سيجعلني اندم عليها فيما بعد عندما ينتهي اللقاء ويذهب كلُ واحدٍ منا الى حالِ سبيله، وقد لا تتكررهذه الفرصة معها ثانية، اذ أنها بعد الخذلان الذي لاقته وتلاقيه الآن مني ستمتنع عن زيارتي مرة أخرى، وربما لن تتحدث معي وتتجاهل وجودي اذا ما قابلتني في الكلية، فهناك شيء في داخلي يحرضني بشدة على المبادأة ويحثني على تحمل كل ما الاقيه في سبيل الاستمتاع بلحظات مع هذه الملكة التي توجه لي دعوة غير صريحة وأنا أرفض بتجاهلي عن كره لها، تأكدتْ شكوكي عندما وضعتْ فخديها على بعض كي تظهر لي من فوق ومن تحت بأوضح ما يمكن، هذا تقويض لصبري وتجاهلي المشبوه لهذه الفاتنة، ماعدت احتمل هذا التضييق والخنق، أتحدث معها وأذني تتابع أصوات رخ المطر في الخارج خشية ان تتوقف وتفسد عليّ كل خططي وأمنياتي، وربما اذا توقفت المطر يتوقف معها قلبي، لأن حسنائي ستطيرعلى عجل بعدها مباشرة كالعصفورة الفارة من قفصها، وهل يعودُ العصفورُ الى قفصهِ طوعاً؟ حاولتُ ان أختبر مدى تجاوبها معي، اذا

ما زَحَفَتْ يدي لوحدها دون تدخل مني كعادة الأيدي الطامعة المتمردة التي تنطلق وحدها دون تدخل من صاحبها تجوس أمكنة وساحات ثم تعود سالمة، وتمسح بلين وتذوّق على فخدِها شبه العاري والذي يزداد انكشافاً لي وروعة مع كل حركة تأتي بها، وتبارك لها هذه المنة الربانية بهذا الملمس الناعم، وكلما حوّلتُ نظري عنها متغافلاً عن عمدٍ، متلهياً بشيء ليس لي رغبة فيه، اجدها قد بالغت في الكشف عن المزيد من مساحة الساقين والفخدين وبقية المناطق المحرمة، وربما هي تتقصّدُ ذلك بغية تحفيزي على المبادرة لفعل شيء يثبت انني فعلاً فحل ومتجاوب مع ما تفعل وليس هارباً أدخل في بعضي شيئاً فشيئاً وأتكوّر ضئيلاً كالقنفذ، اللعنة لم ارى في حياتي مثل بطتي ساقيها ولا كاحليها المكتنزين الصارخين، ماذا يحدث لي لو انني اقدمتُ على فعل ما فكرتُ فيه واستسلمتُ لهواجسي وتكهناتي ومررت يدي بهدؤ وكأنني لا أرى شيئا ولانية لي في الإساءة لأحدٍ كائناً من يكون، والعملية لا تتعدى إعجابي الشديد بملمس هذه البشرة النظرة والناعمة وكأنني أتفحّص قطعة قماش من الحرير في احد متاجر الأقمشة الفاخرة، إنما يجب التفكير في العواقب قبل الإقدام على أي خطوة قد تكون عواقبها وخيمة عليّ، لكن اللوم يقع على يدي اللعينة هذه التي قد تمردت وخرجت عن طوعي وتصرفتْ تلقائياً لوحدها دون ان تستشيرني، كي تضعني في هذا الموقف المحرج أمام ضيفة تزورني للمرة الأولى، زحفتْ كالحية وتحملت مسؤولية

وتبعات ما أقدمتّ عليه، وكلما كررت الإلتفات هنا أو هناك وصرفت نظري عنها أجدها قد وسعت من رقعة المنطقة الملتهبة المحرمة، وازدادت اقتراباً مني، وأصبحت رسائلها واضحة اليّ وشبه صريحة، لكنما لازال الخوف من تسرعي يردعني ويمنعني من المبادأة وهي تتعمد التعرّي غير البريء، وتاتي بهذه الحركات المغرية ليس عفوياً، الأمر لايحتاج الى تأكيدٍ آخر أوّكد من هذا الذي يحدث أمامي، ماذا وكيف ستكون ردة فعلها عندئذ؟ هل هي من ذلك النوع الشرس من النساء إلـذي يتسلى ويستمتع بتعذيب القلوب عن بعد، وتتجاهل فعلتها، وهي الآن ترصد حالتي أولاً بأولٍ وتتابع التحولات التي تطرأ عليّ ككتاب مفتوح تسهل قراءته، وما ان تتحرك الحية من مكانها، حتى أنال أنا العقاب وستلطمني على خدي بملء كفها مثلما حدث لي مع أخريات في مرات عديدة سابقة ندمت عليها، والتي غفلتُ فيها عن حماية وجهي، لكن هذه المرة أنا يقظ تماماً ومحتاطاً، انظر الى يديها والاحق حركتهما بإنتباه واتأهب بيني وبين نفسي للنأي بوجهي والفرار به بعيداً في لمح البصر عن طائلة يديها قبل ان تتحرك، وانتظر اللحظة التي سترتفع فيها احدى يديها لتصفعني بكفها على خدي، وربما تعقبها ببصقة على نفس الوجه، اتابعهما بحذر وانا اتأهب بيني وبين نفسي للفرار من طائلة يدها الطولى دون أن اغفل كذلك قدميها المتوتبتين ربما تركلني هي الأخرى بركبتها على عضو التناسل كعادة المتدربات على مثل هذه الضربات القاتلة، لاحظت

أخيراً انها تضحك كثيراً بسببٍ وبدونه في محاولة أخيرة منها للدفع بي الى البدء في خوض المحاولة التي أفكر فيها، وعلى مايبدو انها تضايقت كثيراً من هذا التأخير الممل ومن هذا الشخص الذي يجلس في لامبالاة بجوارها ولايفهم لغة الحب وايماءاته ولا يجيد التعامل مع الجنس الآخر البته، والا ما هوالتفسيرالصحيح لكل هذا البرود وفقدان الإحساس حد الغباء، أمام هذه العروض الباذخة، ثم تحول نداء عينيها الصريح الى استغاثة ملحة من كائن استنفذ كافة اغراءاته وحيله، إذن قلقها الذي بلغ أقصى حدوده ليس من الأمطار الغزيرة التي ستحول دون رجوعها الى بيتها ولا من شدة التفكير في اين ستقضي ليلتها الشاتية هذه بعيداً عن بيتها، وإنما قلقها جاء من هذه المصيبة التي لا تفهم، من هذا القنفذ الذي لا يفلح الا في التكوّر والنأي أكثر ويحصّن نفسه بنفسه، فهي مثله تماماً احبت المطر الذي حال دون خروجها، وتمنت ألا يتوقف حتى الصباح. ولكن المضيف مقتنع بأنه لا يفهم الا من خلال الشرح المستفيض أوالدعوة الصريحة وربما ينتظر منها أن تبدأه، أما تلك التلميحات والإيماءات فهي لا تصله الا بصعوبة ولا يثق فيها وهذا ما تعلمه من تجارب سابقة، رغم انها اللغة الوحيدة للحب، والوحيدة فقط. احياناً يقف الى جوارها فيزداد ابتسامها الذي سرعان ما يتحول الى ضحك تتضح عنده اسنانها اللامعة كصفي اللؤلؤ وانها مصفوفة بطريقة منسجمة مع شكل فمها وتمنحها جمالاً أخّاذاً لايسهل الاهتداء اليه بسرعة وهو

نفسه لم يكتشفه الا الآن فقط بعد تمعّن، انها تبالغ في قرص قلبه حتى تدفعه الى إطلاق يده تسعى ويقعُ من بعدها في المحضور، ويكون بذلك هو بنفسه الذي منحها مجاناً المبررَ كي تنهال عليّه صفعاً ولكماً خاصة وأنها تضايقت كثيراً من بروده ولا مبالاته المصطنعة، وانتهزتْ الفرصةَ للإنتقام منه وعقابه، الى أن قالت له:ـ لا تقلق بشأني اذ لايزال على بزوغ الشمس أقل من نصف ساعة وبعدها سيغمر الضياءُ الدنيا ويعمُ الأمانُ عندها أصل الى بيتي بسلام، توجهتْ نحو الباب وهي تجر خيبتها بوضوح، وفتحته لتودعه بابتسامة شاحبة على طرف شفتيها، فيها ما فيها من السخرية منه والشعور بالخذلان الذي أصابها بسببه، وهو يتعجب كيف مضى الليل بطوله بهذه السرعة!. لكن الشئ الصادم حقيقة وأحدث شرخاً في ذاكرته، ما اتضح له أخيراً لحظة ان صفقتْ الباب من أنها ترتدي بنطالوناً أسوداً وحذاءً جلدياً يتسامق مع ساقيها حتى ركبتيها، وتضع شالاً حول عنقها ويتدلى على جيدها، لحماية نفسها من البرد، تقدم نحو الباب مسرعاً زاعماً توديعها ووقف ليتأكد وهو يتفحصها من رأسها الى أخمص قدميها، مشدوهاً من هذا التبدل الذي طرأ عليها، هذا الفارق بين ما كان يرى وما يرى الآن، فلم يرَ لا فخدين ولا ساقين عاريين، بل امرأة بكامل لباسها..

14
(نستشير الطلحة)

لوحده ذاتيـاً، دون تدخل من أحـد، ودون أن يسمع أو يـرى ما يضحك.. إنفلت يضحك ويضحك بلا توقف حتى تحـول ضحكه الى قهقهة، تتقطع وتغيب معها أنفاسه الى ان يشرق ويسعل بشدة وتدمع عيناه من اثر ذلك. التفتَ اليه جميعُ الحضور مندهشين وقد أخذتهم الحيرة ـ في امره، وكل واحد منهم ينقّل نظراته مستفسراً بين وجوه رفاقه عله يعثرعلى إجابة شافية عند واحد منهم، وعندما لم يتحصلوا على إجابة من أي منهم، أخذوا يتضاحكون مثله ـ في اندهاش من الموقف الذي حدث فجأة دون مقدمات وبلاسبب ولا ذريعة، ويشاهدونه بأم اعينهم، معتبرين ذلك من قلة الأدب وليس من اللائق بل وينتقص من خلق وشخصية فاعله، فالوقت ليس وقت ضحك أو هزار، لأن الجميع مهمومون وتستحوذ على تفكيرهم المصاعب

التي تواجههم أثناء الرحلة والظروف السيئة التي يمرون بها وهم في بحثهم عن حلول لها، ومن بينهم من له بال في الضحك مثل هذه اللفتة (المتصابية) التي حيرتهم وصرفت انتباههم اليه. طلب منه الرفاق الاتيان بتفسير مقنع لما يضحكه بهذه الطريقة السمجة التي تضايق منها الجميع لما بها من استخفاف واستهانة بمجلسهم وتدل على بوادر الجنون، والا الامر سيأخذ تأويلات لا تعجبه ويسجلون عليه موقفاً سلبياً وهم معذورون في ذلك إذا لم يأتِهم بمبرر مقنع، وهو الآخر وجد نفسه محرجاً في نهاية الضحك أمام أصحابه وشعر بالخجل بعد أن أدرك خطأه الفادح متأخراً، وعليه أن يذكر لهم حقيقة السبب الذي أضحكه بهذه الطريقة المفاجئة والا سيغتاظون منه، وربما يقاطعونه بسبب هذه الخطوة الفجّة التي اقدم عليها طواعية ولم يرغمه على فعلها احد، وشعر بأنهم جميعاً قد استمجوا هذه البادرة التي فيها من السداجة والسخف ما فيها، وهوالمعروف عنه التعقل والحصافة وسعة الأفق، لكنه طلب منهم التريث بحركة من يده اليمنى التي جمع رؤوس أصابعها الخمسة الى بعض، وأخذ يهزها فوق وتحت في حركة سريعة كإشارة الى طلبه منهم القليل من الصبر حتى يلملم انفاسه التي شتتها الضحك، الذي لايزال يغالبه للسيطرة عليه اذ منعه من ذكر السبب مباشرة لضحكه. وبدأ في سرد قصة قد وقعت لأبيه منذ سنين خلتّ وكانتّ سبباً في هذا الإحراج، تذكرها الآن فجأة وعلى حين غرة وفعلت فعلها فيه، فبرر لهم ذلك

قائلاً: – لقاؤنا هذا ذكرني باجتماع سابق قد حدث لمجموعة من آبائنا تحت ظل شجرة وارفة مثل هذه الشجرة وذلك عندما كان والدي يحصدُ حقله المزروع قمحاً وشعيراً في أحد الاودية بمنطقة " القبلة "، وكما هو معروف عن عملية الحصاد بالطريقة اليدوية التقليدية، فهي متعبة وشاقة جداً ولا يحتملها الا من اعتادها في عمر مبكرا وتمتع بصبر وتجلد عظيمين أيضاً، ولها أناس محدودون يستطيعون القيام بها وليس كل من هب ودب. البعض من الفلاحين شارف على اتمام الحصد ولم يتبقَ له من حقله إلا القليل، لأنه في الاساس لم يحرث مساحة كبيرة من الأرض تفوق جهده، ومنهم من كانت حقولهم كبيرة ووسيعة ولايزال أمامهم الكثيرلإستكمال المهمة، وكان من بين الفلاحين العم (فرج) من أولئك الذين شارفوا على الإنتهاء ويرغب في من يعينه لمدة ساعات فقط حتى ينتهي من حصد كل حقله، فإتجه الى شجرة الطلح الوارفة حيث يستلقي تحتها العديد من الفلاحين المنهكين الذين يلتمسون القليل من الراحة والإسترخاء – بعد ان ثقلت عليهم ابدانهم من شدة التعب – حتى يستعيدوا حيلهم ونشاطهم ويعودون الى الحقول من جديد، وهم أكثر إقبالاً من ذي قبل على الحصد . قدران يغليان على الموقد في هدؤ على مبعدة منهم كيلا تصلهم حرارة النار، ويحدث صوت البقبقة الذي يصل آذانهم في هدؤ مع وشوشة الريح وهي تتخلل بين أغصان الطلحة هدهدة ناعمة قد أرخت الجميع وهيأتهم لنوم أكيد، والنوم

بعد التعب يصبح لذيذاً، وتتضاعف لذته عندما يستمع الجائع الى صوت القدر – والذي سيكون على موعد مع محتواه بعد دقائق فقط – وهو يبقبق بلحم الجدي الطيب على الموقد، وأي جدي إنه الجدي الذي يتغذى على بقايا الحصيدة والأعشاب البرية بأنواعها الزعتر والإكليل والشيح والتي لها رائحة فوّاحة، وتترك أثرها في طعمه ويصبح لحمه ولا ألذ منه، فهم نصف نائمين أي بين النوم واليقظة في إسترخاء تام يستمتعون بهدأة القيلولة، في أوضاعٍ مختلفة منهم من يستلقي على ظهره ومنهم من على إحدى جانبيه ويمتد على طول قامته، ويغطي وجهه بعمامته بعد أن فكها عن رأسه في إستكانة وإستسلام انتظاراً لنضج الوجبة اللذيذة، الى أن وصلهم العم " فرج " الذي القى السلام على عجل ثم طلب برجاء من بعضهم التطوع باعانته على حصد القليل المتبقي له من زرع، والذي لا يأخذ من وقتهم الا ساعة أو ساعتين فقط، حتى يرجع الى البلدة في وقت أبكر، فلم يجبه احدٌ منهم، رغم أن جميعهم يستمع اليه بوضوح وآثروا الصمت وعدم الرد عليه لأن طلبه فيه أنانية وإجحاف في هذا الوقت تحديداً، فهم قد تركوا مؤقتاً زروعهم التي تخصهم دون حصد كي يرتاحوا قليلاً، فيأتيهم من يطلب منهم هذا الطلب الغريب في هذا الوقت الذي يأخذون فيه قسطاً من الراحة. وظناً منه بأن لم يسمعه أحد منهم كرر طلبه مرة أخرى بصوت عالي جهور، وحتى هذه المرة لم يلتفت اليه ولم يردعليه أي منهم، ومعنى ذلك ان طلبه

قد قوبل بالرفض، فكرر طلبه للمرة الثالثة موجهاً كلامه هذه المرة تخصيصاً الى الأسطى سالم، فرد الاسطى سالم عليه بالقول : — يا (فرج) علينا أن نستشير الطلحة التي نستظل بظلها اولاً ! إذا إرتضت الطلحة ووافقت على الإنتقال معنا بظلها الى الحقل كي تظللنا فنحن لا نمانع أيضاً في اعانتك ونلبي طلبك مثلما لبت الطلحة طلبنا، وسننهض جميعاً ونذهب حالاً الى حقلك ونتم حصده معك، ولكن إذا رفضتْ الطلحةُ الذهاب معنا، فنحن مثلها تماماً لن نتحرك الى الشمس، ونترك الظل ونحن في انتظار نضج اللحم والطعام.

15
(البرجاس)*

حيت يبيتون ليلتهم في هذا المكان وهم في طريقهم الى فزان لجلب التمور، المنتوج الأهم لهذه الواحات القصيّة، وعند الصباح الباكر سيستأنفون رحلتهم، عندما مر الشيخ (عبداللطيف)على صفٍ من الشباب وهم يصوبون ويرمون على شارةً كانوا قد وضعوها على مبعد منهم، ويستهدفونها برصاص بنادقهم من يصيبها أولاً، فوقع نظره على سالم وهو الوحيد من بينهم، الذي لايزال جالساً ويتنكب في هدؤ بندقية صاحبه وهو نفسه الشيخ عبداللطيف، والتي أعارها له ولم تكن ملكاً لسالم الذي يتفرج عليهم في صبر وهم يهدفون، لذلك لم يحاول معهم القنص والفوز بإصابة الشارة، خشية أن تنفجرالبندقية كما يحدث أحياناً، ويصبح في موقف صعب ومحرج مع مالكها الشيخ عبداللطيف لكن صاحبه هذا الذي ما إن مر بجانبه ولاحظ انه يتفرّج

على الشباب وهم يصوبون ويطلقون رصاصهم واحد بعد الآخر، حتى إبتدأه بالكلام مستفسراً: – سالم! لماذا لا تشارك الشباب مسابقتهم في الرماية؟ فأجابه سالم : – أخشى على البندقية من الإنفجار بحكم انها لا تخصني، لهذا آثرت مراقبتهم دون المشاركة، من فوره الشيخ عبداللطيف رد على سالم بكل ثقة : – ارمِ مثلهم، وليكن مايكون، ولا تحرم نفسك متعة التهديف، بندقيتي هي بندقيتك لا فرق!. بعد ان نالَ سالمُ الإذنَ الذي تفاجأ به، وسُرَّ بسماعه ايضاً، حتى إختارَ مكاناً يظهر فيه الهدف بأوضح ما يمكن، وصوّب ناحيتها، وسالم هذا كان كريم العين اليمنى، وما إن ضغط على الزناد، حتى تشظت الشارة والتي هي عبارة عن قطعة حجر مستطيلة وتطايرت في الهواء، إندهشَ الجميعُ ورفعوا رؤوسهم ومنهم من جلسَ متفاجئاً إذ كانوا جميعاً في وضع إنبطاح، مستفسرين عمن أصاب الهدف (الشارة)؟ فأجابهم الشخص المجاور لسالم تماماً مشيراً اليه: – انه الغريب ! إننا عشرون رام، ومضتْ علينا ساعة ونحن نطلق النيران دون ان يتمكن من اصابتها أي منّا، وهذا الغريب يصيبها من المحاولة الأولى! أمر مغيظ حقاً، شعر جميعهم بالإهانة وحنقوا على سالم أشد الحنق، رجل واحد غريب أفضل من عشرين رجلاً منّا، شيء لايطاق مطلقاً، ولا يمكن الصبرعليه. لقد حسدوه على هذه المهارة النادرة في الرماية، وأرادوا إشفاء غليلهم عليه بالتخلّص منه وإنهائه الى الأبد، وتفاهموا فيما بينهم على ان يسندوا الى (سالم) المهمة

اليومية التي يقومون بها كل مساء بالتناوب، ألا وهي جمع الإبل من الشعاب القريبة التي تسرح بها، وإحضارها الى مكان المبيت، وعندما يذهب (سالم)لإنجاز المهمة ويبتعد عن المكان الذي يقيمون فيه هذا المساء، حتى يلاقيه في الخفاء من الجهة المقابلة أثنان منهم يكونان متربصين به ودون ان يدري بهم يسددان له إطلاقتين على الرأس أو منطقة الصدر ويرديانه قتيلاً، وينسبون هذه الفعلة الشنعاء زوراً وبهتاناً الى قطّاع الطرق (الفلاقة) الذين ينتشرون في المنطقة.. وعندما وافق جميعهم على الخطة وقبل مغيب الشمس، طلبوا من سالم ان يذهب وحده لإرجاع الإبل الى المراح وذهب سالم فور سماعه الطلب، وبعد ان إبتعد قليلاً وإختفى عن الأنظار، لحق به شيخ زنجي مسن من الرفاق على وجه السرعة بغرض تنبيهه لما دُبر له قبل فوات الأوان، كان هذا الشيخ قد سمعهم وهم يخططون لقتل سالم دون أن يدروا بوجوده قريباً منهم، فرأى ان من واجبه ابلاغ سالم بما دبر له لإنقاذه مهما كلفه هذا من ثمن، لأنه يكره الخيانة ولأنه كان زميل والد سالم في الكُتاب الذي بالبلدة وهم صغار يتعلمان القرآن الكريم، وعندما اقترب منه إستوقفه وقال له منادياً: — ياسالم عليك بالرجوع حالاً، وأنا سأذهب بدلاً منك وأعيد الإبل الى مكانها. رفض سالم هذا الطلب قائلاً للشيخ : — أيعقل هذا؟ انت شيخ مسن تعيد الإبل في هذه الظلمة المقبلة بعد لحظات والتضاريس الوعرة، وأنا شاب يافع في عمر ابنك اعود الى المقام(المخيم) كي أستريح؟، فقال

الشيخ هذه المرة سأقوم بهذه المهمة أنا نيابة عنك!. لكن سالم رفض مجدداً اقتراح الشيخ وأصر على موقفه، أنا يجب من يذهب وليس انت، وعندما لمس الشيخ في سالم الإصرار القويّ على المضي في اكمال المهمة، وجد نفسه مضطراً الى كشف السر لسالم، بعد ان أخذ منه الأمان بعدم اذاعة السر الا لصاحبه، وعدم الإتيان على ذكر اسمه لأي كان. قال الشيخ لسالم : — إن ذهبت ياسالم لن تعود حياً.. لقد دبروا لك مكيدة، وسيوقعون بك ويصفونك نهائياً، لأنك في اول المساء انت الوحيد الذي أصاب الهدف من بينهم، وانت الغريب الوحيد، صعق سالم لسماعه هذا النبأ وقد تبدّل لون وجهه الى الأصفر كالتراب، عاد سالم مصدوماً وهو لا يرى الطريق من هول الخبر الى ان وصل الى مكان الإقامة، وإستقبله صاحبُ والده الشيخ عبداللطيف مستفسراً منه : — لماذا رجعت بهذه السرعة ياسالم؟ فأجابه سالم : — لا شيء، وعندما حدق في وجه سالم لاحظ ما طرأ عليه من تغيّر فأصبح لونه أصفراً بشكل ملفت من هول الصدمة، وهنا كررالصاحب سؤاله هذه المرة بجدية واضحة وفي لهجة آمرة بعد أن تأكدت شكوكه، طالباً من سالم ذكر السبب وايضاح الأمر له دون مواربة : — لا تقل لي لا يوجد سبب، فالسبب ظاهرعلى الفارق في لون وجهك بين ذهابك ومجيئك، قل لي يا بني، من الضروري ان أعرف، لا تضيّع الوقت أكثرعليّ وعليك، وبعد الحاح روى سالم القصة لصاحبه، الذي استنكر بدوره هذه الفعلة وصدم بها مثلما

صدم بها سالم نفسه، وقال الشيخ عبداللطيف موجهاً كلامه الى سالم: — أيعقل ان يقتل الإنسان نفسه دون أن يدري؟ اراحك الله يا بُني من عناء هذه المهمة من الآن فصاعداً ومن دونهم جميعاً الى ان تعود الى اهلك سالماً بعون الله، وبعد أن تناول افراد القافلة وجبة العشاء جمعهم الشيخ عبداللطيف وخطب فيهم قائلاً: — كلكم يعرف مع من جاء هذا الشاب مشيرا الى سالم، لنفترض ان ما دبرتموه له قد وقع بالفعل ونجحت عملية خيانتكم له، لقد أودعه أبوه عندي واستوصاني به خيراً، واحسبه أمانة في عنقي ريثما أعود به اليه سالماً، بماذا تظنون انني سأجيب (صديقي) والده عندما أجده ينتظر قدوم إبنه؟ أيها السفلة الحقراء! هل سأكذب على صاحبي كي تمرروا جريمتكم؟ مرؤتي تمنعني من مواجهة هذه اللحظة، أقسم أنني سأبيدكم جميعاً وعلى بكرة أبيكم بذات البندقية التي أصابت الهدف، ونؤسس مقبرة هنا في هذا الخلاء، وتغدو معلماً للعابرين وسيذكرها كل من يمر بهذا المكان.. ويذكرالزمان أيضاً ان الحقد والكراهية وحدهما كانا سبباً في وجودها هنا في هذا الخلاء.

*البرجاس: هدف يوضع على شيء مرتفع ليرمى.

16
(نصف أبجدية)

في البداية قاوم(رحيّم) رغبته العارمة في الرقص والتي داهمته بعد سماع المزمار، فما إن سمع صوتَ المزمار قبل لحظات يستتب، حتى ادرك أن العازف ليس كأي عازف عادي، بل هو محترف وبارع بدرجة عالية، وهو الذي لم يسمع ألحاناً بهذا الاتقان المميز والصياغة الساحرة منذ سنوات خلت، عندما كان العازفون البارعون على قيد الحياة. أخذ الحضور في التصفيق وهذا ما يقدرون عليه لخلق ايقاع داعم ومكمل لصوت المزمار، كان اهتمامهم عادي جداً بالعزف الى أن ادركوا المهارة الفائقة التي هزت كيانات الجميع، ونهض نفر منهم الى الحلقة للرقص. وعندما لم يطق (رحيم) صبراً حتى تغلبَ على خجله واخفى وجهه كاملاً عن اعين الحضور بمنديله الذي ثبته بواسطة قبعته، وانسدل على وجهه حتى لم يظهر منه شيئاً، تم هذا

في هدؤ دون أن ينتبه اليه أحد، إذ ما كان متوقع منه أن يقدم على الرقص بهذه السهولة وهو الغريب الوحيد من بين الحضور.. بسط ذراعيه جانباً في وضع المصلوب وأخذ يهز كتفيه وأطراف أصابعه الى الأعلى والأسفل وكأنه يرتعد ممتثلاً مع الإيقاع البطئ بدقة مدهشة وإتقان متناهٍ، كان تجاوبه في البداية بتردد ومتقطع، لكن الرقص دواء هذا ما كان يسمعه من النسوة في حلقات خلواتهن عندما كان طفلاً يرافق أمه دون حرج الى هذه الحلقات. التفت (حموده) عن يساره فهاله ما رأى ! إنه أول من لاحظ (ارحيم) من بين الحضور في هذه الهيأة، إلتزم الصمت والهدوء وهو يسرق النظر اليه في انبهار ويتساءل في سره: — هذا الشيخ الضيف الذي يوحي مظهره بالمهابة والوقار، يجيد هذه اللغة بهذا الإتقان؟ وكأنه يغني بهذه الاهتزازات المنضبطة من ذراعيه وكتفيه، لا شيء يتحرك من جسده إلا صدره وكتفيه فقط ورأسه أحياناً، فهو جالس القرفصاء ويريح بقية جسده على الأرض دون حراك، وعندما وجد(حموده) الجميع مبهورين أكثر منه بهذا الغريب البدعة، وخشية أن تبدر من أحدهم كلمة أو حركة متسرعة فجة غير لائقة، فيتوقف عن الرقص ويبطل المشهد من أساسه، لذلك وضع سبابته على شفتيه طالباً منهم المحافظة على الهدؤ وضبط الشعور، وهمس فيهم بعصبية : — اتركوه لحاله.. انه منسجم، لاتفسدوا عليه نشوته .. ولا تحرمونا متعة مشاهدته، لا تلتفتوا ناحيته اطلاقاً حتى لا يكتشف أننا نراقبه،

فقد يتوقف، أرجوكم! أرجوكم!، اسرقوا النظر اليه بحذر وكأنكم تتجاهلونه وشاركونه المتعة، لقد سرق انتباههم جميعاً، وابطل رقصه بنصف جسده كل محاولاتهم البائسة وتسابقهم لابتداع الأجمل، التي ما أجْدَتْ في تحريك شعورهم، على ما يبدو أنه راقص محترف قديم ونحن لا نعرفه ولم نسمع به من قبل، خمن أحدهم، وقد أعدتم له في هذه الليله البهيجة مجده الزاهرالضائع، وكلما مر شيء من الوقت يزداد إتقانه وتفننه وضوحاً ويصبح أكثر إبهاراً وكأنه يستعيد مهاراته الغابرة شيئاً فشيئاً، وتوقفَ كل افراد الجمع الحاشد عن الحراك، وهم يتابعون الضيف الحيي بإعجاب ودهشة، ويتساءلون كيف حدثت هذه المفاجأة السارة، أم أن هناك من رتب لها في السر؟ فعل بهم كل هذا وهو يرقص بنصف جسمه، ترى كيف تكون سعادتهم وإعجابهم بآدائه لو أنه حرّك نصف جسمه السفلي أيضاً، وتكتمل حروف اللغة الجسدية، انه يتكلم بنصف الأبجدية الآن أو أقل قليلاً، وحده عازف المزمار إستمر في عزفه بلا توقف بل ويزداد نشاطاً، وقد تعلقت عيناه وانتباهه اعجاباً بما يفعله الضيف، كنا نعتقد أننا الوحيدون في هذه المنطقة نجيد الفن من رقص وغناء، ولكن في هذه الليلة جاء من يحطم هذه الأسطورة ويكسر القياس ويرسم بيديه وكتفيه فقط مثالاً لا يبارى، والفنانين الذين نفاخر بهم في السابق شعروا بالخجل التام أمام إبداعات لا يقوون على تقليدها حتى، ووقفوا مذهولين من هذه القامة التي تبدي هذا التطبيق الخارق وتعرض لوحاتها ذات

التفاصيل الدقيقة والدلالات العميقة بلا ملل، ونسفت الأول والتالي، انه روح الحفل دون منازع، فمن أي سماء هبط هذا الموهوب البدعة الذي غيّر مسار الحفل كالمعجزة من حسن الى أحسن، وشد بعروضه إنتباه الكل، وجميعهم شعروا بأنهم دون المستوى وتوقفوا خجلاً من انفسهم عن استكمال عروضهم المتواضعة، وتفرغوا للفرجة فقط كبقية الحضور وركـزوا جماع إهتمامهم على إرتعاشة كتفيه مع ساعديه، إذ وسعوا حلقة الرقص حتى يتسنى للجميع التفرج، لكن أكفهم لم تتوقف عن التصفيق في توافق متقن مع أنغام المزمار، كي لا يفتر الحماس المتوقد، وأظن أن الذي حرّك الإحساس لدى الضيف هو عـازف المزمار وما يمتلكه من مهارة فائقة في العزف، وحسن إنتقائه للأنغام والتلاحين السجية الصعبة والطاربة التي يعجزعنها بقية العازفين. بعضهم بعد ان إستبد به الشغف، قرر تقليده ما أمكنه ذلك، وذلك بالرقص معه ومحاولة تطبيق كل مايأتي به من حركات وايماءات، فبسطوا أياديهم وأخذوا يهزون أصابعهم ويدققون النظر اليه بحرص بغية تقليده التقليد التام، لكنهم لم يفلحوا ولم تأتي منهم متطابقة ومكتملة مثلما يفعلها هو، فلم يحققوا توافقاتهم العصبية العضلية وجاءت تطبيقاتهم غير منسجمة، ومع ذلك واصلوا محاولاتهم العقيمة. قال حموده بعد ان لاحظ علية انه قد ازداد نشاطاً: – تريثوا عليه الى أن ينسجم أكثر، حتى يذوب في حالته ويغيب عنا ويصبح يعيش في حرية فطرية، ولن يبقى لنا منه الا متعة

الرقص والإبداع، إمنحوه فرصة الانصهار في ذاته كالمجذوب، حتى يتسنى له اظهار مخزونه من لوحات راقصة، رغم إنه ما يزال في بداية انسجامه، وأصبح لا يسمع ما يقوله من هم حوله. شعر بالحمو ونزع المنديل عن وجهه ورماه جانباً، فهاله ما رآه من حوله، الجمع الذي يلفه ويصفق له بإعجاب وإبتسم لهم نصف ابتسامة زهو، ثم عاد الى حالته، وبانت حبات العرق تلمع بوضوح على جبينه وخديّه كالنجوم في ليلة صائفة، فقد إخترق حاجز الخجل، ولكن هيهات بعد هذه الدرجة من الإنتشاء، أن يستطيع ضبط نفسه والتوقف عن الرقص، كل هذا ومايزال الجميع متحسرين ويتساءلون بإلحاح، كيف سيكون المشهد لو أنه رقص بأبجدية كاملة.

١٧
(من كان يدري)

عندما إتجهتُ بالشاحنة المحملة بعبوتها من حجارة البناء الى المكان الذي أقصده، لتفريغها فيه حيث الأرض رملية وجدُ لينة ومن الصعب السير فيها بالسيارة، الا سيارات الدفع الرباعي ومع ذلك تكون الحركة صعبة، إتخذتُ الوضع والإتجاه المناسبين قبل الإنطلاق وحددت النقطة التي سأقصدها بحيث لا تنحرف الشاحنة لا يمنة ولا يسرة حتى لا تنغرز عجلاتها في الرمل وتعلق عند دوران العجلات، وبينما السيارة تسير تصبح المقاومة قوية عكس منها اذ كانت تسير على استقامتها، أحيانا نفرغ العجلات من بعض الهواء فتصنع العجلة بطوناً مفلطحةً وتصبح عريضة مما يحول دون تغريزها وعندما تنتهي عملية التفريغ والخروج من المنطقة الرملية الخطرة نملأ العجلات بالهواء من جديد مثلما كانت في السابق، المسافة التي سأقطعها في

الأرض الرملية لا تتجاوز المئتي متر لكنها أصعب من مئتي كيلومتر، في الأراضي الصلبة، هيأت الشاحنة للإنطلاق حيث عشقت تروس الدفع الرباعي وإنطلقت بضغط كبيرعلى المحرك الذي إرتفع صوته عالياً مزمجراً، محاولاً التغلب على جذب الرمال لعجلات الشاحنة الى اسفل تحت ضغط الوزن، فإذا كانت السرعة بطيئة ستساعد على غوص العجلات في الرمال بفعل ثقل الشاحنة الذي يأخذ الشاحنة الى الأسفل، وكلما كان إندفاع السيارة الى الأمام قوياً يقلل من تغريزالعجلات، لأن قوة إندفاع الشاحنة في الإتجاه الأفقي يفوق ويتغلب على قوة ثقلها نحو الإتجاه الرأسي. السياقة في الأراضي الوعرة غيرها السياقة في الأمكنة السهلة، وصلتُ الى مكان التفريغ الذي انوي تفريغ الشحنة فيه وقد أظلمتْ الدنيا تماماً ولم أتمكن من رؤية المكان الا ما يسمح به ضؤ الشاحنة غيرالكافي، والمكان جد خطير إذ قد تعلق الشاحنة في الرمال وعندها لا أستطيع العودة الى المنزل وسأضطر الى قضاء الليلة في نفس المكان حتى الصباح.. وكانت الحمولة ثقيلة، وشغلت آلة التفريغ التي ترفع صندوق الشاحنة كي يتدحرج ما بها من طوب الى الأرض في كوم واحد، ارتفع الصندوق الى نصف المسافة اللازمة لإنزال كل ما به من طوب، ثم توقف وهذا غير كاف لتفريغ الشحنة كاملة، إذ بقي بها أكثر من نصف الحمولة، ويحدث هذا عندما يكون زيت الهيدروليك ناقصاً وغير كاف لرفع صندوق الشاحنة بما يكفي لتفريغها، وقد وقع لي هذا الموقف من قبل

مرات عديدة سابقة، ولكن بمجرد أن أضيف إليها الكمية الناقصة من الزيت الخفيف (37) حتى يرتفع الصندوق الى الحد الأقصى له ويتم تفريغ كامل الشحنة بكل سلاسة، أكثر من نصف الحمولة لايزال على ظهر السيارة، بحثُّ على جالون زيت الهيدروليك الذي احتفظ به كإحتياط فلم أجده، وتأثرت لذلك كثيراً وأصبح واضحاً لي أن شخصاً ما قد أقدم على أخذه دون إذن مني أوحتى يعلمني بذلك كي احتاط للأمر، والوقت ليل والظلام دامس وليس أمامي إلا أن أشرع في تفريغها يدوياً وأي تأخير أو تفكير في المشكلة ليس إلا مضيعة للوقت ولن يكون في صالحي، ثبتُ حزامي الذي يشد ظهري حتى لا تؤلمني فقراته وإنهمكت في تفريغ بقية الحمولة طوبة طوبة، برميها على جانبي الشاحنة يميناً ويساراً الى آخر طوبة، والظلمة تشتد مع مضي الوقت الذي بلغ منتصف الليل مما حثني على إتمام المهمة والرجوع الى البيت كي أرتاح بعد ما لاقيته من تعب ومشقة.

في الصباح عدت الى منطقة المحاجر لمعاودة الكرة من جديد، وهناك التقيت أول ما إلتقيت بأحد الرفاق الذي إسمه (رمضان) ومن فوره بادرني بالإعتذار والتأسف حيث أنه إحتاج الى جالون الزيت (37) وأقدم على فتح باب قمرة قيادة شاحنتي وأخذ جالون الزيت الذي كنت أحتفظ به للإحتياط قال لي :ـ وجدت نفسي مضطراً لإستعارة جالون الزيت (غيبياً) دون تمكني من أخذ الإذن منك لعدم وجودك، لأن المكان غير مأهول ولاتوجد بالقرب منه محطة لبيع الزيوت حتى

يشتري منه، ورويت له معاتباً القصة كاملة ومالاقيته من متاعب ومشقة عند تفريغ الشاحنة يدوياً بسبب ما أقدم عليه عندما تجرأ وأخذ جالون الزيت، فكثف من إعتذاره لي وأنه قد شعر بالندم وأخذ يلوم نفسه ويعاتبها حتى أحسسني بالخجل تجاهه، وحاول ان يغطي حرجه ببعض الأعذار ويخفف من غضبي المكثوم وأنه لم يجد سبيلاً ينقذه من المأزق الذي هو فيه إلا الإقدام على أخذ الجالون من سيارتي، وتدرع بأنني أكاد أكون الوحيد من بين سائقي الشاحنات الآخرين الذي أتحلى بخلق حسن وسلوك طيب وأتمتع بسعة ورحابة صدر، وقد وقع إختياره عليّ لأنني لن أتدمر منه ومن تصرفه هذا ولن اتهمه بسؤ أو اسبب له مشكلة وسأكون متساهلاً متسامحاً معه الى أبعد حدود التسامح.. قدم لي الجالون البديل الذي حرص على إحضاره معه هذا اليوم وهو يواسيني من جديد على ماجرّته عليّ فعلته هذه من متاعب، الحقيقة غمرني بأسفه الشديد وطيب من خاطري، وانعكس الدور عليّ وأصبحت أقدم تساهلاً وابدي تسامحاً وكأنه لم يفعل لي شيئاً. في اليوم التالي عبأت الشاحنة بالطوب كالعادة وهذا ديدن العمل في المحاجر والمقالع، وأتجهت الى المصب الذي ألتزم بتوفير مواد البناء له من رمل وزلط وحجارة بناء طيلة مدة التشييد، وعندما وصلتُ، وكان الوقت نهاراً والشمس ساطعة وليست مثل أمس عندما كان وصولي ليلاً، فقمت من فوري بمعاينة الطريق الذي سأسلكه ولأختار المكان الملائم لتفريغ الشحنة حتى

اتجهُ اليه مباشرة وفي خط مستقيم تفادياً لغرق الشاحنة في الرمال ولاحظت أن الطوب الذي أحضرته امس كان مشتتا هنا وهناك، وليس كبقية الشحنات السابقة مكدس في أكداس منتظمة وملمومة، هذه الملاحظة ذكرتني بما حدث لي في الليلة البارحة لأنني أكاد أنساه، وعندما حانت مني نظرة أخرى وعلى غير توقع الى الأعلى هالني ما رأيت بل صُعقت على طول وكاد قلبي ان يتوقف، ولولا أنني خفت من السقوط وتداركتُ الموقف وانطلقت مهرولاً لتنشيط الدورة الدموية في جسمي لما بقيت حتى هذه اللحظة، إذ رأيت خط كهرباء الضغط العالي يمر فوق مكان الشاحنة أثناء الليلة البارحة وبسبب الظلام لم أتمكن من رؤيته وقتها، ولو أن صندوق الشاحنة إستمر في الإرتفاع الى مداه الطبيعي المقدر له يكون قد لامسّ اسلاك الكهرباء وصعقتُ بداخل قُمرة القيادة في هذا المكان المهجور دون ان يدري بي أحد، لو لم يأتي رمضان ويأخذ جالون الزيت في ذلك اليوم لما رويت لكم هذه الحكاية، من كان يدري؟.

18
(مفارقة)

عندما كان يصطحبني ابي معه الى الحقول البعيدة عن البلدة لتقديم يد العون له في حصادة ما تم زراعته قبل سبعة أشهر، كنا قد قضيناها في انتظار نضج المحصول واستوائه، والتي تستدعي البقاء بالقرب منها في مخيم لهذه المهمة ما يقارب الشهر وفق المساحة المزروعة وكميةالمحصول، حتى يتم إنجاز الحصد والدراسة معاً في البيدر ثم التدرئة وتخزين الإنتاج، ويوقظني أبي في ظلمات الفجر قائلاً لي تجاوزاً : إنهض يا فتى، وغادر فراشك، فلقد أشرفت القيلولة على الحلول وأنت لازلت تغط في نومك ! .. اشعلِ النارَ وقمْ باعداد الفطورَ لنا، ولنذهب من بعد ذلك الى الحقل الذي ينتظر قدومنا .. نهضتُ وغسلتُ وجهي ثم أشعلتُ النارَ وأعددتُ الشاى والسويق «الزميته» تناولنا الإفطارَ ولازالَ الضياءُ غير كافياً لرؤية

السنابلِ والمناجلِ، فقد تندس أفعى بين السنابل، أو قد تصيب يمناه يسراه بالمنجل أثناء الحصد في الظلام لصعوبة الرؤية، انتظرنا فترة طويلة حتى أصبحتْ الرؤية ممكنة نسبياً، ثم انتقلنا الى الحقل، وإستأنفنا الحصد من النقطة التي انتهينا عندها مساء أمس، ولكن بحذر مبالغ فيه، خشية أن تلسعنا عقرب أو تلدغنا أفعى، وفي حوالى الساعة العاشرة تناولنا إفطارَ الضحى على عجل ونحن في الحقل، حتى لانضيّع الوقتَ، واستمرينا في الحصد وجمع السنابل المكدسة الى جوارنا ونقلها الى البيدر، في حياتي لم أسمع أبي يغني ولا حتى يدندن، لكنه ما إن يمسك بالمنجل ويأخذ في الحصد حتى تداهمه الرغبة في الغناء، ويرفع عقيرته عالياً بالغناء دون مقدمات : — (جت النملة بحزيمها .. جت للفار تشاكي فيه .. وقالتله اطلع يا فار والزرع جوه أماليه) وعندما يغني ينشط ويزداد إمتلاءً وحيوية، ويتضاعف إنهماكه في الحصد بلا هوادة، ودون توقف، وكلما داهمه الإعياء وشعر بالتعب، إستأنف غناءه من جديد، وهكذا الى أن يقطع شوطاً، لاحظت أن الغناء يخفف عليه وطأة التعب ومشقة الحصد، وعند منتصف النهار طلبتُ الإذنَ من أبي للإنصرافِ الى شجرة (البطوم) هناك لإعدادِ وجبةِ الغداء، حيث الأواني والزاد وكامل المواد الغذائيةالمكونه للوجبة، فأجابني بعد ان رفع رأسه وحدق حواليه ونظر الى مكان الشمس في السماء: — لايزال الوقت صباحاً وأمامنا متسع من الزمن للحصد، فإنفجرتُ ضاحكاً من رده هذا، وسألني

عما يضحكني، فأجبته وأنا لم أكمل ضحكي بعد: – يا أبي عندما أوقظتني في الصباح قلت لي أنهض انها قيلولة، والآن في القيلولة الحقة تقول لي انه مايزال الصباح وعليّ بالإستمرار في الحصد، لقد حوّلت الصباح الى قيلولة، والقيلولة الى صباح، كيف استطيع الإمساك بك والتفاهم معك، فضحك من عمق قلبه، وقال هذه المرة قد أفحمتني، وأسكتّني فعلاً، وليس لدي ما أرد به عليك، إذهب وأعدد لنا وجبة الغذاء.. انطلقت وتركته منهمكاً في حصد السنابل، ويغني بصوته الرزين أغنيته المحببة التي لا يمل ترديدها:-

الذيب ايقيّل وانا ما انقيّل[1] وقولوا لمي تعملي اجليل[2]

الذيب ايبات وانا ما انبات وقولوا لمي تعملي افتات[3].

(1) – ايقيّل: يرتاح وقت القيلولة.

(2)-أجليل: – مظلة تقي رأسه من الشمس

(3) – افتات: – اكلة ليبية امازيغية يفتت فيها الفطائر وتسقى بالحساء.

19
(حلم الجائع)

مرتْ عليهم سنينٌ عجاف، واصبح حلمهم الأوحد الحصول على كمية من الدقيق، كي يصنعوا منه أرغفة ويطعمون بها الجياع، ولكن ذهب ببعضهم النهم والخوف تفاؤلاً الى تمني جبلاً من الدقيق أو أكثر قليلاً، أغمض عينيه وإسترسل : – ياحبذا لوتتحول هذه الكثبان والتلال العالية من الرمال التي اراها أمامي الى دقيق، لايفرق كثيراً، بل سيان عندي، ما دمنا نكابد الجوع أكان دقيقَ حنطة ام شعير أوحتى ذرة رديئة، ونجلس جميعا على الأفران ونصنع خبزنا بلاحدود، فرد عليه احدهم ـ مادامتْ كل هذه الرمال دقيق ستشعر بالشبع، قبل ان تأكل منها ولو قطعة خبز واحدة، وتُسَدُّ شهيتك على طول بمجرد ان ترى جبالاً من الدقيق، وأكداساً من الخبز، لأن افراط الشهوة والنهم له دور في مضاعفة الشعور بالجوع، فشدة العطش أو الجوع

تتوقف على الحالة النفسية للانسان وشعوره بالطمأنينة من عدمه، فهي التي تقلل منه اذا توافرتْ وتزيده اذا قلتْ أو إنعدمتْ. ولكن طالما اتيناعلى ذكر الرمال تذكرتُ موقفاً طريفاً قد وقع لي عندما كنت شاباً يافعاً بصحبة أبي في احد اسفاره العديدة الى واحات فزان، وكنتُ اقوم باعداد وجبة الغداء يومياً والمتكونه من عصيدة الشعير (البازين)، وابي يخشى ان ينفد الدقيق منا وقد نتعذب أو نموت جوعاً، فيأمرنا دائماً بالحرص والإقتصاد للحفاظ على الدقيق الى الحدود الدنيا للكفاف، حتى نبلغ وجهتنا، ويشدد في ذلك علينا ويراقبنا دائماً لربما احدنا قد تجاوز تعليماته وإستهان بها، ولأن كمية الدقيق محدودة جداً وهي كل زاد الطريق في هذه الرحلة، فيبقيها تحت سيطرته ممسكاً بها لديه ويخفيها عنا ولا يسمح لأحد بالتصرف فيها ولا الإقتراب منها، لأنها لا تكفينا طيلة مدة السفرة، ويعطينا كمية لا تكفي لإشباعنا فننهض بعد تناول كل الوجبات ونحن لازلنا جياع، وفي حاجة الى المزيد، لكنني هذه المرة شئتُ التحايل عليه بنظرة قاصرة مني ولامسؤولة ووضعه امام الأمرالواقع، فهداني تفكيري الى طريقة اخادعُ بها أبي الذي يصعب استغفاله، فوضعتُ القدر على النار وتعمدت صبَ كمية من الماء أزيد من الكمية المألوفة اللازمة لطبخ كمية الدقيق المعتادة والممكنة، حتى نتحصل على قدر من الدقيق اكثر من الكميات التي كان يعطيها لنا في المرات السابقة، والا نتحصلُ على عصيدة زخوة غير متماسكة يصعب تناولها، وعندما

أصبح القدر يغلي منحني كمية الدقيق المعهودة ووضعتها في القدر وحركتُ الخليط، بالمغرفة كي تستوي لكن العصيدة لازالت كالشربة اللبنية لم تتماسك بعد، وتحتاج الى المزيد من الدقيق وفق الحيلة التي أعتمد عليها لكسب المزيد من الدقيق، فطلبتُ منه المزيد من الدقيق حتى نتحصل على عصيدة متماسكة، فقال ليحرك مافي القدر حتى ينشف منه بعض الماء ويتماسك العجين، وعندما لم يتبخر منه الا القليل، ولايزال على حاله رخواً أعطاني حفنة دقيق أخرى لكن العصيدة لم يصبح قوامها غليظاً، ولازالتّ جارية فطلبت منه المزيد للمرة الثالثة، فاستغاظ مني ومن طلبي وكأنه ادركَ تحايلي عليه، فتقدم بنفسه من القدر وهو غاضباً وأخذ يحفنُ بكفيه من الرمل في الجوار، ويصب في القدر، وهو يقول ويكرر لي :ـ هاهو الشيء الذي لا يكمل أبداً، ها هو الشيء الذي لايتم أبداً، وأمرني بطبخه وفرضَ علينا تناوله غصباً عنّا، بما في ذلك ابي رحمة اللّه عليه..

20
(الشمعة لا تنحني.. وان انحنتْ انطفأتْ)

فاجأني بعينين ضاحكتين، اعترض طريقي وتوقفَ صامتاً قبالتي لبرهةٍ، وقد علتّ وجهه ابتسامة حقيقية، ماداً دراعيه في لهفة ليحضنني ويضمني الى صدره أو ليصافحني بكلتيهما، لا استطيع ان احدد بالضبط ماذا ينوي، وقد سعد كثيراً بلقياي وغمرني بحفاوته البالغة، منتظراً مني التعرف عليه بنفس السرعة ومبادلته ذات البهجة الطارئة التي خلقها الموقف قبل الإقدام على اخذي بالحضن.
في حقيقة الحال وبكل أسف لم اتمكن من التعرّف عليه بل ارتبتُ في الأمر وانا انظر متفحصا بدقة وجهه وملامحه علني أعثر فيها على بقايا ملمح قديم منه، أو علامة تهدني الى هويته التي قد تكون غائبة عني الآن، وأنا أتذكر واتساءلُ اين تراني التقيتُ به في السابق ؟، لا جواب ولا شيء يسعفني في هذه اللحظات الحرجة، وهو يواصل

ترحابه بي في فرح متناه ويتزايد مع اللحظات التي تعبر، وكأنه عثر على كنوز الدنيا مجتمعة الآن، ويكرر سؤاله عن صحتي وبقية أحوالي بكل فصاحة واهتمام ويذكرني باسمي وكأنه يعرفني جيداً : – استاذ عبدالله ما أسعدني في هذا اليوم بلقائك! وما أجمل هذه الفرصة السارة التي جمعتني بك بعد هذه القطيعة الطويلة التي فصلتنا عن بعض منذ افتراقنا!، مما ضاعف من حرجي معه وأنا استمع اليه وجعلني استخف بذاكرتي البليدة التي تخذلني الآن وانا أحوج ما أكون اليها، اذ رفضت بكل وهن الاعتراف بشخص يحتفي بملاقاتي صدفة ويمنحني من الإكبار اكثر مما اتوقع، ويرفع من شأني بدون تثبت!. في البداية ظننتُ انه مخطئ ولم يحسن التعرف على صاحبه الذي يعتقد واهماً انه انا، وانه عما قريب سوف ينتبه لتسرّعه وخطئه ويقدم اعتذاره لي وينصرف لحال سبيله، وعندما واصل ترحابه وابتهاجه بي وبنفس قوة الحميمية واندفاع الدهشة التي بدأ بها، وذكر اسمي كاملاً هذه المرة ليؤكد لي ان اللوم على ذاكرتي أنا وليس عليه هو، ومع ذلك لازلت في شك من أمري وأسأتُ به الظن، لربما يكون نصّابا من اولئك الشباب الجدد الذين لا يخشون قانون ولا يهابون عقاب وقد لفظتهم المدارس ولم يتحصلوا على نصيب من التعليم يجعل منهم اناساً أسوياء، وأصبحوا بارعين في الخداع ويعيشون منه ويملؤون شوارع المدينة، بحثا عن ضحايا يخادعونها او يبتزونها للحصول على بعض المال، قد التقط اسمي صدفة واتخذ

منه دريعة لاختراقي والوصول اليّ، وهو الآن يطبّق تمثيليته عليّ بحرفية متوخياً النجاح، وشئت ان اختبر صدقه معي وشفافية هذه المودة والحرارة التي يبديها لي بلا حدود ويغمرني بها وكأنني وزيرٌ او محافظُ المدينة قاطبة. وبينما هو لا يزال يسدي لي مديحه العالي بلا توقف كنت انا ازوغ بنظري لحظة هنا وأخرى هناك متهرباً من نظراته الحادة مرتبكاً حائراً في أمري امام هذا الموقف المحرج لي، حتى غيّرَ بنفسه مجرى حديثه قائلاً: على ما يبدو انك لم تتعرف عليّ بعد يا استاذ عبدالله؟ وعندما لم اجبه بالسرعة المطلوبة تأكد من صحة شكوكه، وأيقن فعلاً أنني لم اتمكن من التعرّف عليه وهذا الشيء لم يعجبه، أصابه الاحباط وتغير لون وجهه على الفور من أثر الخيبة وتدافعت الدماء اليه حتى اسوّد وقال وهو غير راضٍ عما حدث انا القيلوشي ! أحد تلاميذك بمدرسة ... في العام الدراسي ... ما كنت اعتقد في يوم انك ستنساني بهذه السرعة، أو حتى تجد مشقة في التعرف عليّ الى هذا الحد، انت الذي كنت تحبنا حباً جماً يفوق الوصف أو هكذا نظن، وكنت ترعانا كأبنائك تماماً وتغمرنا بعطفك دون حدود سواسية بلا فروق، وتبذل الجهد الكثير في سبيل تهذيبنا وتعليمنا، ولازلنا نعيش على نصائحك القيّمة وارشاداتك النبيلة التي تبديها على الدوام ولازالت لم تغادر أذهاننا ولا حتى آذاننا، ولا نتحصل عليها من احد سواك، وهي ذاتها التي اكتسبنا منها السداد والسؤدد ووهبتنا طمأنينة الأخذ وجرأة العطاء،

وخلقت منا رجالاً فاعلين في مجتمعنا. وبينما هو يسرد مآثري الجمة وأفعالي الحميدة بمبالغة ظننتُ معها أنه يتحدث عن انسان آخر بأوصاف ما كنت أعرفها عن نفسي، انصرفت محاولاً تذكّره وانا على يأسٍ من ذلك، لأن عدد التلاميذ الذين درستهم قد بلغ الآلاف اليوم، وقد كبروا جميعاً وتغيرتّ ملامحهم وتبدلت سحناتهم، ولن اتمكن من استعادة وجوههم الفتية القديمة تلك – التي تراكمت – ولا اتذكر أي منهم الآن، وقد تكرر معي هذا الموقف المخجل في مرات عديدة سابقة، وكنت اوفق في اغلبها، وأجد انه من العسير عليّ تذكر وجه تلميذ واسمه معاً، فأحياناً نتعرف على الوجه فقط لكن اكون قد نسيت الاسم، واحياناً اخرى نتعرّف على الاسم والوجه معاً أو اتذكر الاسم وتغيب الملامح، ولكن في اغلب الأحيان التلميذ لا ينسى معلمه بينما المعلم قد ينسى تلميذه . توجهت اليه بالكلام : – طالما عددت مآثر المعلم أرى من واجبي ان اعرفك ما يلقاه مقابل ذلك من معاملة، حتى تكون على بينة منه، وها أنا أعيش بموازاة نفسي وقناعاتي، بعد ان أصبح الشعور الغالب عليّ فقدان الأمل في اصلاح ما تبقى، انا الآن قاربت نصف قرن من الزمان هي كل حياتي المهنية في التدريس، لكنني لم اجنِ شيئاً على الإطلاق حتى هذا اليوم سوى الخيبات، التي تراكمت بصورة مفزعة، لا شهادة تكريم ولا وسام استحقاق كاعتراف بافضال المعلم، وكل ما من شأنه ان يشجعنا ويرفع من قدرنا ويشعرنا بقيمة ما دفعناه من أعمارنا في سبيل هذه البلاد،

لقد سبقنا التماسيح والدلافين وحتى ابناء آوى ونهبوا كل شيء، عزائي الوحيد يا بني انني اديت الأمانة بكل ما امتلكتُ من طاقة عطاء، وكان ذلك قبل ان أعرف هذه الحقيقة المرة، ولو كنت عرفتها قبل ذلك لأصابني الخذلان والوهن والقنوط، وما كنتُ قد اعطيتُكم شيئا مما كنت تقوله لي قبل قليل، نعم وهبنا جهودنا وعرقنا للأجيال التي نراها اليوم تزدهر وتبني وهنا (في صورة عابرة كالطيف تذكرتُ الدكتور (ضوء) تلميذي الذي اصبح معلمي ذات يوم عندما شئتُ اكمالَ دراستي العليا على كبر سني، وكيف ان الدنيا تدور في حلقة مفرغة كي تكرر نفسها، ونحن نتبادل عشوائياً فيها المراكز والأدوار)، لكنما اعترافك هذا واعتراف الكثيرين امثالك وامتنانهم لما قدمته قد عوضني الكثير الكثير، هناك من أناس قد بذلوا ارواحهم في ساحات أخرى فداء لأوطانهم دفعة واحدة وانتهوا، لكنما نحن ندفعها بالتقسيط نفساً بعد نفس ولازلنا حتى هذه اللحظة من هذا الزمن الرتيب ندفع دون مِنّة ولا تقصير، يا بني الشعب اربعة مواطنين الأول يرى انه وحده للوطن، والثاني يرى ان الوطن له وحده، والثالث يجمع بين الأول والثاني، والرابع هامشي ليس منهم جميعاً.. التعليم في بلادنا، يا بني قد تعمدوا تخريبه وافشاله على مدى عشرات الأعوام الماضية، باعتماد استراتيجيات غير منظورة وسياسات هدم خبيثة فتمكنوا بسهولة ويسر من افساد الجاهز النامي والآخذ في التطور على اساس استبداله بالأفضل، لكنهم لم يتمكنوا من اعادة البناء

المنشودة .. وبقينا عاجزين نراوح في حالة الهدم دون ان نطول حتى بداية البناء، وتم ادخال وتمكين عناصر لا نهاية لها ولا تمت لمهنة التعليم بصلة – ممن ليسوا أهل دراية ولا معرفة الى حقل التعليم – لتسييره، فسَبَبَ هذا في تدنّي مستواه تدريجياً، وايقاف تناميه الصحيح لتشويهه مستقبلاً، الى ان بلغ الحضيض وهذا ما يكون عليه الآن تحديداً، فليس كل من أمضى مدة طويلة في مهنة التدريس يكون خبيراً، ولكن من الضروري لكل خبير أن يكون قد أمضى فترة طويلة، ولكي ينهض من جديد يحتاج الى سنوات بناء تفوق في عددها سنوات الهدم بكثير، فالهدم يتم بسرعة لكنما البناء جد بطيء، وأعلم يا بني ان التعليم معلم فقط، وما عداه مجرد مكملات ودعائم رافدة لا تبلغ في اهميتها درجة الضرورة التي بلغها المعلم، ولكن أين المعلم الذي نحتاج الآن؟ وعندما اكتشفَ انني استنفذتّ حيلي واستهلكتّ تماماً استاء لحالي وارتسمتّ على محياه علامات التذمر وأحسَ على ما يبدو فجأة بخيبة أمل كبيرة ربما أكبر من خيبتي، ضاق بها صدره وعجز عن احتمالها، ارتعشتّ شفتاه واهتز دقنه بعد ان احمر لونه، وتلألأتّ الدموع في عينيه طافرة غصباً عنه، وغص فمه بالكلمات والعبرات معاً. أخذتُ اربتُ على كتفه واضمه الى صدري وأطيّبُ من خاطره محاولاً دعمه نفسياً للتخفيف عنه وتهدئته، أجهش بالبكاء أكثر وخلّصَ نفسه من حضني يريد ان يخفي وجهه عني خجلاً من ما آلت اليه احوال المعلم، وكأنه بصمته وسكوته فيما مضى على الخطأ

وهو يتفشى أمامنا جميعاً كان احد الأسباب في هذا البؤس الذي لاحظه عليّ، همستُ له بارتياح وانا على ثقة من نفسي : – لا عليك يا بني (الشمعة لا تتحني ..وان انحنتّ انطفأتّ) لم استطع انتزاع هذا القلب بما يخفق وأتخلص منه ! ومضي لحاله وهو ينظر اليّ ويستطعم الخيبة، عاجز عن ايفائي ولو بالقليل من حقي، ولم يشح بوجهه عني، ويقول كلاماً كثيراً لم أستطع تبينه كاملاً لكن سمعتُ منه : الشمعة لا تتحني ..وان انحنت انطفأت، واسترسل يكيل اللعنات بلا توقف على اولئك الذين بطولتهم في عب المال، بعد ان اصبحتّ بهم ولديهم مهنة التعليم بضاعة للمتاجرة والسمسرة، وحتى عندما ابتعد عني استمر ينظر اليّ بحدة ويهدر غضباً بنفس السباب. تلفتُ حولي باحثاً عن ملاذ يأويني وقد ثقل جسدي وعجزتُ عن الاستمرار في الوقوف، فالتجأت الى أقرب جدار وجلست تحته مستندا بظهري على قاعدته، وانا اتابع خطواته المعكوسة وهو يختفي عني رويداً رويداً، ووجهه يتضح لي اكثر فأكثر....

21
(غرابُ الليل)

كل بيوت ومساكن القرية عبارة عن مبانٍ أرضية واطئة، اذا ما استثنينا غرف التخزين القليلة التي تبنى وتتطاول في طابق أو طابقين فوقها، وهذه البيوت لها نوافذ على مستوى قامة الإنسان، ورواشن أعلى نسبياً وضيقة بغرض التهوية والاضـاءة، تفتح على الأزقة والشوارع، وهي أيضاً متجاورة تماماً، أي متلاصقة مما يوفر على ساكنيها تكلفة بناء أكثر من جدار، اذ يتشارك بيتان في جدار واحد، والبيت الواحد قد يتشارك في جدارين أو ثلاثة جدران مع غيره من البيوت. (خيري) أحد شباب القرية الذي اختار له والداه اسماً من الأسماء الشائعة في المدينة، وغير المعروفة لدى أهل القرية، فوحده من يحمل هذا الاسم الفريد بينهم، مما أكسبه امتيازاً وشهرة بين أنداده بمعرفة الجميع له، وكان مدللاً للغاية وغير معتمد على نفسه،

لهذا نجده عندما كبر لم يتمكن من الزواج كبقية أقرانه، وكلما حاول جمع المال لسد نفقات العرس يجد نفسه غير قادر على توفير المبالغ الكافية لذلك، ولم يستطع ايقاف السنوات الراكضة من عمره، الى ان استسلم في آخر الأمر لواقعه، بما فيه من عجز ويأس وتخلى ولو مؤقتاً عن فكرة بناء بيت وتكوين أسرة يسكن اليها ويعيش في كنفها وهو هانئ البال كبقية شباب القرية، واصبح ينظر الى أن كل بيت من بيوت القرية التي يراها متلاصقة أمامه ويعرفها بيتاً بيتاً عامرٌ بأهله ويحتوي على رجل وامرأة يعيشان في وئام ويتبادلان الغرام متى يحلو لهما هذا، وربما الآن في هذه اللحظة تحديداً يلتحمان في عناق تام، وكل منهما يسقي الآخر عسل الحياة، الا بيته بقي فيه وحيداً في وحشة، وينتظر المعجزة التي يأمل ألا تتأخر عليه طويلاً لتتحقق أمنيته، وعندما يرخي الليل سدوله يزداد حاله شططاً ويحس بفراغه وغربته وحاجته الى زوجة تملأ قلبه الخاوي وتسرّي عنه همومه ويضمها اليه في فراشه ليلاً ويصنعان الفرح والسعد حتى الصباح كبقية رفاقه، الذين – من أجل تحفيزه – يتعمدون وصف رغد معيشتهم أثناء حضوره بأحاديثهم في جلسات النهار عن مغامراتهم وممارساتهم الجنسية مع زوجاتهم على امتداد الليل، مما يزيد من تلهفه وشططه، الا أنه يسائل نفسه باستمرار: – هل يحس بهذا الانكسار جميع شباب القرية أمثالي، أم أن القليل منهم يحس به، أم لا أحد سواي؟، وهذا الخاطر الأخير أكثر ما يضيّق عليه، حتى

شبّه نفسه بأولئك الفتيات اللواتي يتململن ليلاً في قلق على أفرشتهن الباردة، جنب الصقيع مباشرة، لا يقلّن ألماً منه. ثم استبدل تأملاته للأحواش والبيوت من خارجها وهو على مبعد منها، بعد ان وجدها غير مجدية، الى فكرة متقدمة نوعاً وأكثر ايجابية، وهي المرور عليها مباشرة وزيارتها عن قرب، بأن يدرع كل شوارع القرية، ويعزم الإقدام على انتهاك قدسية هذه الأمكنة بحماقة غير محسوبة، وذلك للاضطلاع بعينيه من خلال النوافذ والثقوب والشقوق على ما يدور داخلها حقيقة من مغامرات جنسية لا يعرف عنها شيئاً يذكر في السابق، وبهذا يكون قد اهتدى الى فكرة تخفف من غليله وتلهيه عن الشعور بالحرمان الذي يتولاه كل ليلة، وتعوّضه ولو جزئياً عن ما فاته وما سيفوته في المستقبل من بهجة المشاهدة رغم ما فيها من التطفل والسخف، وذلك بالمرور على البيوت جميعها وتفقدها من الخارج، ثم التطلع الى داخلها اذا ما وجد الى ذلك سبيلا، والتلصص عليها لربما يحظى برؤية مشهد كامل والتفرج علية برويّة من شقوق النوافذ المغلقة، أو بسماع تأوه يهز بدنه بنشوة عارضة ويأخذه بعيداً الى تخوم جنات المتعة المرتقبة، رغم انه يعرف اصحاب البيوت جميعاً معرفة حقة، ويتحدث اليهم متجاهلاً ما يقدم على فعله ليلاً، وكأنه بريء لم يفعل شيئاً، وبالفعل بدأ في خوض جولته السرية والاستطلاع على ما يمكن رؤيته وتُسَرُّ به عيناه. بالتدريج تحولتْ هذه الجولة الليلية الى عادة يصعب عليه التوقف عنها، أشبه الى حد بعيد بالإدمان، بدأ يحب

الليل وينتظر قدومه على قلق، لما وجده فيه من متعة التفرّج، حتى انه لا يتمكن من النوم ليلاً الا بعد ان يقوم بجولته هذه كاملةً، وخاصة في ليلة الخميس الطويلة التي اعتاد الناس جميعاً على السهر فيها والاحتفاء بها واحيائها في ممارسة الحب وصناعة التمتع بمباهج الحياة، بصفتها ليلة نهاية الأسبوع، ويتبارك الزوجان فيها بمطارحة الجنس، ولا ينتبه الى لحظة رجوعه الى البيت الا في أخريات الليل بعد ان يكون قد اشبع نهمه واستمتع بما يكفيه من المشاهدة، كان يحاذر ان يراه أحد ويكشف سره، رغم انه على ثقة كبيرة بأن لا أحد يمكنه التوصل الى معرفة ما يقوم به ولا التكهن بما يفعل، لأنه لم يحتج أحد قبله الى هذا التصرف، وهو الوحيد الذي خطرت له هذه الفكرة الجهنمية المستبعدة وغير المشبوهة، ومع هذا يرتدي لباساً خاصاً لهذه المهمة امعاناً في التخفي والغش، ويكون لونه قريباً من لون الظلام حتى لا يكون واضحاً بما يكفي لرؤيته، وما يساعده أيضاً على التخفي أن شوارع القرية غير مضاءة، ويضع في قدميه حذاءً رياضيا خفيفاً يساعده على الهرب بسلاسة وخفة، اذا ما أضطر لذلك. وهو يفضل فصل الشتاء عن بقية الفصول للقيام بتجسسه، حيث يشعره بالاطمئنان، لأن الجميع يلزم بيوتهم أثناء الليالي الشاتية من مغيب الشمس، ويصبح المسرح خالياً الا منه، ويستمتع بالعديد من المشاهد المتنوعة في الليلة الواحدة. يستمر في بحثه عن النوافذ التي يخرج من شقوقها أي شعاع مهما كان واهناً أو تضوع منه رائحة البخور

والروائح المهيجة التي تعلن صراحة عما يجري في الداخل، فيتجه اليه بعد ان يعرف من هو صاحب هذا البيت بالاسم والصفة، وكم يبلغ من العمر بل ويتمثله خيالاً أمامه، لدرجة انه تعرف على القدرات الجنسية لعددٍ كبيرٍ من الرجال، وأخذ يصنفهم بينه وبين نفسه كلاً حسب قوته ايهم الذي لا يبارى وأيهم الذي يعاني من ضعف واضح، ويخيّب عشم رفيقته، ويرثي لحاله، في الغد يقابل بعضهم في سوق القرية فينظر اليه بطرف عينه ويبتسم بزاوية فمه بينه وبين نفسه على ما شاهده منهم من قوة وضعف ليلة البارحة، واذا لم يتمكن من الرؤية التامة يحاول ان يباعد بين مصراعي النافذة كي تتسنى له المشاهدة بوضوح، ويتسقط بانتباه شديد ما يمكن التقاطه من أصوات المناجاة والتودد التي يتفوه بها الحبيبان أحدهما الى الآخر، دون ان يحدث خشخشة أو صوتاً قد يلفت الانتباه اليه ويكلفه الكثير، وهو دائماً لا يهدأ ولا يستقر على وضع فينظر يميناً وشمالاً ويلتفت الى الوراء، ثم يتفرج قليلاً ويعود الى التفاتاته من جديد خشية أن يباغته أحد المارة، وقد احتفظ بهذا السر لنفسه فقط، ولم يبحْ به لأحد من خلانه، حتى أولئك الشديدي القرب منه كي لا يفعلوا مثله وينافسوه، وبالتالي يضيّقوا عليه ويحرمونه لذة غير مباشرة يستمتع بها وحده، واذا ما التقى بأحد أصحابه أثناء تأدية المهمة يعجّل من خطوه في خفة وصمت مبتعداً عنه، وكأنه منشغل بحاله دون ان يمنحه فرصة التعرّف على ملامحه، وكلما تشاور مع نفسه

حول صحة وسلامة هذا السلوك، ورغم اقتناعه في النهاية بجسامة الخطأ، لكن يغلبه الميل الشديد الى متابعة هذا الديدن. وهذه الليلة اختلفت عن سابقاتها فالذي دفعه ناحية النافذة ليس ما ينبعث منها من ضوء، ولا ما يفوح منها من روائح البخور، بل ما التقطته أذناه المدربة من ضحكات متقطعة وجذابة تفرقع وسط شبه الظلمة، وتتداخل مع تأوهات مفعمة باشتهاء متبادل ومحموم، وقد بلغ بها بالمداعبة الى مرحلة متقدمة من التهييج، وبينما هو يتفرج فاتحاً فمه على أحدهم وهو يمازحها متودداً اليها وهي تتمنع في رغبة أكيدة الى أن يقعا معاً في حالة اشتباك لذيذ ومحموم بالشفاه – وهنا تأكد له أن قوة المرأة تظهر عندما يضعف الرجل – ثم يعتلي نمرته، وبعد ذلك طلب منها أن تعتليه هي في وضع مضاجعة مختلف الى أن بلغت الذروة حتى غلبتها المتعة وتراخت كلية وسقطتْ من علياء اللذة الشاهق فاقدة الحول في نصف اغماءة وارتمتّ الى جواره مغمضة العينين مطوحة ذراعيها على الجانبين، انما في هذه الليلة ليس كبقية الليالي نسي نفسه، فقد صادر المشهد انتباهه تماماً، وسلبه حذره الأول، فلم يلتفت ولم يستطلع المكان من حوليه كعادته في المرات السابقة، وفي اللحظة التي فقد فيها (خيري) صبره وفتح فيها فمه ليصرخ عالياً من شدة الشبق وارتفاع حالة النفير لديه، بصوت مزوّر مموه كي لا يتم التعرّف عليه بسهولة، مخاطباً في اغتباط الرجل المنهك من تأدية واجبه قائلاً: انهض يا جحش!، احدهم كان يتابعه

ويترصد خطاه بروية حتى باغته من ورائه دون ان يراه، ووضع كلتا يديه على عيني (خيري) ضاغطاً بأصبعيه الوسطى والسبابة بقوة وكأنه يريد فقأهما، ولا يملك (خيري) في هذه اللحظة الحرجة بعد أن ضُبطَ أخيراً متلبساً بجرمه الا الاستكانة والرضوخ لهذه المباغتة غير المتوقعة على الاطلاق، والتي شلت حركته وكأنه قد صُعق، أخذ يخفُّ ضغط أصابع اليدين على عيني (خيري)و تمكن من الالتفات للتعرّف على من يمازحه لكنه لم يجد أحداً خلفه، الأمر الذي هاله، وجود خندق سحيق متسع ومظلم يطوّقه ولا يمكن القفز فوقه، فبقي واقفاً دون حراك كالمصلوب حتى الصباح الى ان وجده الناس واصبحوا يتساءلون عن سبب لوقفته هذه غير المبررة، فالناس لا ترى هاوية الخندق بينما وحده من يراها وترعبه. الأمر الذي حيّر المارة جميعاً ممن حاولوا اقتياده الى بيته وهو يرفض لخوفه من الوقوع في الخندق، ويرفض مغادرة مكانه رفضاً قاطعاً، لأنهم لا يرون الهوة السحيقة لهذا الخندق العميق الذي يخافه (خيري) ويحف أصابع قدميه، وكلما تقدم أي منهم لأخذه من يده يصرخ بأعلى صوته متبرئاً منهم وكأن عفريتاً اقترب منه، طالباً الابتعاد عنه، وممتنعاً عن مد يده بمجرد الدنو منه، ((لأنه يرى الخندق وهم لا يرونه)).. فالصرخة التي شاء ان يطلقها الليلة البارحة، ها هو يطلق عشرات الصرخات كلما اقترب منه انسان مخلّص.

22
(قصص قصيرة جدا)

(1) صورة

وقفتُ على الشاطيء الخالي الا مني، يأخذني إلحاح داخلي على التأمل، بحر ازرق داكن، أكداس من السحب الرمادية المتحجرة، هل كل من ينظر الى نفس المشهد، يراه كما أراه، ويحس بمثل ما احس، ويفسره كما أفسره ؟ .

(2) ابني وفيروز

قال لي إبني الصغير، وكأنه يزف لي بشرى : — الليلة البارحة حلمتُ بأنني إلتقيتُ بفيروز عند جبل الشيخ، فسألته من فوري بلهفة من يريد أن يتحصل على اجابة سريعة، وكأن اللقاء قد وقع حقيقة : — ماذا قالتْ لك ؟ وماذا قلتَ لها ؟ قالَ بعفويةٍ : — سألتها، هل تستمعينَ

وتستمتعين أيضاً مثلنا بسماع صوت فيروز ؟، قلتُ له : — بماذا أجابتك يا بني ؟ قال : — إختفت قبل أن تجيبني، ربما إستيقظتْ على الطرفِ الآخرِ من الحلمِ !

شجار (3)

ايُنا يُحِبُ الآخرَ أكثرَ، سألَ هو .

اجابتْ هي : — أنا أحِبُكَ أكثرَ مما تُحِبُنِي بكثيرٍ !

اجابَها منفعلاً : — لا . أنا احِبك اكثر مما تحبينني .

إحتدمَ التنافسُ والتناقش، وعلا التلاسنُ، هي لم ترضَ أن ينتقصَ من حُبها له، وهو أيضاً لم يقبل أن تنتقصَ من حُبهِ لها !

لا أحدَ يستطيعَ قياسَ درجةِ الحبِ لدى الإنسانِ . كل منهما تمسّك بظنهِ، ودافعَ عنه حتى تطورَ الى بدايةِ شجارٍ، شجارٌ من نوعٍ مختلفٍ .

(4) مشهد

بعض أشجار الطلح الشهباء، السامقة المتناثرة .. الارض حمراء، جرداء من أي أثر للعشب، يابسة تماماً.. إمرأة سمراء نحيلة تمشي مرغمة، وتغالب الريح الذي تكاد تطيّر عنها رداءَها .

(5) صورة

هذا يوم آخر على شاطيء البحر .. المساء صامت .. وقفَ يودعُ المراكبَ المغادرة .. مركباً تلو الآخر.. حتى تنتهي بين الزرقتين.. ويعود

بخطى ثقيلة ..

(6) سؤال

بعد ان اوقفَ السجانُ سجناءَ الرأي لديه في طابورٍ وسط ساحة سجنه، وأخذَ يتفحصهم واحداً بعد الآخر، ليس للإستفسار عن أحوالهم، والوقوف على حقيقة أوضاعهم في السجن، ولكن كي يسومهم شيئاً من الإذلال، وله مآرب أخرى أيضاً، حيث يوجّه اليهم أسئلته الساخر والمستهزئة، إقترب من أحدهم وكان يمقته كثيراً موجهاً اليه سؤاله، بعد ان وضع أصبعه السبابة تحت ذقن هذا السجين، وأخذ يذقّن له في حركة سخيفة ومذلة وهو يسأله : – هل انت رجل ؟ فأجابه سجينُ الرأي بكل ثقةٍ : – لو لم أكن رجلاً، فما الذي أتى بي الى هنا ؟ .

(7) العصافيرُ تهزُ الشجرةَ

قالت الشجرة للعصافير المهاجرة: – أيتها العصافير المهاجرة لا تغادري. إبقِ معي وأبنِ أعشاشك في عليائي وبين أغصاني، وجاوريني .. اريد سماع أصواتك كل صباح، فها أنا أمد أغصاني لأجلك، مرحبةً بك، فأبقي ولا تغادري أبدا.

(8) غيهب خادع

كثبان الرمال الشاسعة أمامي تمتد حتى الأفق، هناك على مبعد مني، أرى عوداً مرشوقاً ينتصب في ترقّب، وفوقه طائرٌ صغيرٌ يغيّق

بخفة، فجأة وفي لمح البصر إختفى العود وإختفى العصفور، وبقي كثيب الرمل وحده شاهداً !

(9) المدينة النائمة

في عز النهار والمدينة نائمة تماماً، وهذا ليس مألوفاً لدينا في مدينة ناسها لا يهدأون.. يتساقط المطر الديمة (الدومامي) ويتقطع أحياناً، وأنا أتجسس عليها من فوق بيتي في حذر، بينما هي تغتسل في هدؤ وتكاسل ..

(10) ورقة اختبار

سيدي الرئيس لماذا قبلت استقالتي، ووافقت عليها بكل هذه السهولة وكأنك لا ترغب في بقائي معكم؟ وأنا ما قدمتها الا لمعرفة مدى غلاي عندكم؟ ابتسم الرئيس عقب سماعه لهذه الجملة وهو ينظر شزراً، ثم أجابه بكل تأنٍ : — وأنا قبلتها لأختبر مدى صدقك؟.

(11) كذبة بيضاء

التقيتُ صباح هذا اليوم مع صديقي، حيّاني وحييته، تعانقنا كعادتنا، وبادرني مباشرة بالإستفسار عن احوالي واحوال البلاد، وعندما تلكأت وقد ظهر هذا له بوضوح على محيّاي حتى استطرد موجهاً كلامه لي : — قل لي اي شيء يفرحني، اكذبْ عليّ حتى كذبة بيضاء، أنا مستعد أن أصدقها واتفاعل معها واتفاءل بها، وتبعث فيّ السرور رغم أني أعلم يقيناً انها بشرى غير صادقة.. فقل لي بشراك يا صديقي على وجه السرعة

ولا تتردد.. افتعلٌ حكاية تطمئنني بها، خمنتُ على عجل فيما يقول صديقي، وانبرأتُ بالقول: — أبناء بلادي بين يوم وليلة قد نسوا احقادهم وآثروا بكل ارادة مصلحة بلادهم عن أي مصلحة شخصية أو جهوية، واتفقوا على التصالح والتسامح وتمكنوا من تغيير قدرهم، وعفوا جميعاً عما سلف وكأن لم يكن، وستتحسن الأوضاع عما قريب، ويتعافى الوطن من اوجاعه واسقامه، فتهللتْ اساريره، وارتسمتْ ابتسامة عرضية ملأت وجهه، وانقض عليّ حاضناً حتى كاد أن يصدّقني..

(12) اشبوب

فارس السماء، يجلد احصنة السحب الداكنة الجافلة بسياط البرق، لتصهل وتزمجر برعودٍ قوية، ويبقر بطن السحب لتدلق ما بها من مياه دفعة واحدة ..

(13) دهشة

بعد ان هبطتْ بنا الطائرة في احد المطارات، في منطقة شرق آسيا، وخرجنا الى المدينة وتجولنا في شوارعها واسواقها، حتى بادرني رفيقي في الرحلة بالسؤال التالي : — هل لاحظت مثلي أن جميع مواطني هذه البلاد اقزام؟. ولكن انا الذي اذهلني ما وصلوا اليه من نهوض وتقدم، فرددت عليه : — صحيح انهم جميعاً اقزام، لكن نصف ابدانهم ادمغة !

محسن يوسف الدويش

عَبّاد الماء

قصص قصيرة

عبدالله الماي

هذه مشاهدات كثيراً ما تكررتْ معي، ولازمتني، تحدث أمامي، تلفتُ انتباهي، لكنني لم اعرها الاهتمام اللازم الذي تستحق، والذي قد يمنحه لها غيري ممن يكترثون للأشياء الغريبة لو وقعت لهم وربما يهولونها وتتعدد رواياتها، ولم تكن تقع لي عندما أكون وحيداً فقط لتنتهز فرصة وحدتي وتنفرد بي وتفعل ما تشاء في حرية، بل حتى عندما أكون مدججاً

